

أندرية جيد





للدراستات والترجمة والنشر
دمشق - اوتومستراڊ المزة
٨١٦١٢٦ - ٨٨٦٩٥١
٤١٢٠٥٠ ت لكس
ص . ب : ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسداز
TLASDAR

ربيع الدار مخصص
لمدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

ایزایلا

آندرهه جید

ایزایلا

ترجمه: د. صبری فهیمی

أندريه جيد

André Gide

قد لا نكون مبالغين إذا قلنا أن أندريه جيد من أعظم الأدباء الفرنسيين الذين برزوا وعرفوا في أنحاء العالم في القرن العشرين على الرغم من أنه من مواليد القرن التاسع عشر — إذ ولد في سنة ١٨٦٩ — لا يمثل روح ذلك العصر بل إنه كان أقرب إلى منتصف القرن العشرين بل ربما كان أقرب إلى أدباء المستقبل .

ولد أندريه بول جيوم جيد من أسرة — من أسر الأقلية البروتستانتية في فرنسا — واسعة الثراء أخرجت بعض الرجال الممتازين في الحياة الفرنسية فعمّه شارل جيد كان أستاذاً للإقتصاد معروفاً بعلمه وآرائه السديدة . ولكن هذه الأسرة كانت

محافظة .. شأن الأقليات — شديدة التمسك بالمثل الأخلاقية القديمة ، فأمدته هذه النشأة بصفتين أولاهما أنه لم يكن بحاجة إلى السعي في الرزق وأمكنه أن ينمي موهبته الأدبية على مهل ويجد الوقت للعناية والتنميق في مؤلفاته فكان ذلك الأسلوب الصافي الذي عرف به وتميزت به مؤلفاته. والصفة الثانية أن شعوره بأنه من الأقلية ورؤيته لشدة محافظة أسرته أوجدا فيه روح ثورة عارمة فشار على ذلك التقيد والتشدد وترك نفسه على سجيتها فكان ذلك الجموح بل الشذوذ الذي عرف به وأبى إلا أن يكون صادقاً ، فصرح به وأعلنه في أدبه وقد أخذ كثيرون عليه هذه الحرية والانطلاق إلا أنه صار معبود الشباب الوثاب الذي يندفع لكل جديد

وقد ظهرت هذه النزعة بنوع خاص في مؤلفاته الأولى مثل كراسات أندريه فالتر *Ca'liers d'André* (حوالي سنة ١٨٩٣) وفي «الباهتات» *Paludes* (حوالي سنة ١٨٩٤) وفي «الشاذ» *L'immoraliste* كما ظهرت آثار هذه النزعة أو إشارات إليها في كتب وضعها من بعد مثل «الأطعمة الأرضية»^(١) *Nourritures Tissetrés* «وإذا كانت البذرة لا تموت» *Si le grain ne meurent* و «سياحه أوربان» *Voyage d'urien* ولكنها لم تظهر في قصص أخرى مثل

١ — ترجمة تحت اسم «توت الأرض والقوت الجديد» «الناشر»

«السمفونية الريفية» Le Symphonie Pastorab ومثل «إيزابيلا» Isabelle (سنة ١٩١٩) من كتبه العظيمة .
ومن كتبه العظيمة أيضاً التي تمتاز بأناقة أسلوبه قصته «المزورون» (١٩٢٥) ورحلة إلى تشاد (١٩٢٨) وسياحاته في الكونجو (١٩٢٧) فضلاً عن يومياته Journal (١٩٣٩) .
وقد كان جيد مولعاً بالآداب العالمية ونقل قصة جتنجالي لتاجور الهندي كما نقل كلا من أنطونيوس وكليوبتره وهاملت لشكسبير ، على أنه طبع هذه الترجمات بطابعه وأسلوبه .
ومن أهم أعماله الأدبية وخدمته للأدباء إنشاء المجلة الجديدة الفرنسية في سنة ١٩٠٠ وتعد من خيرة المجلات الأدبية .

وقد توفي أندريه جيد في سنة ١٩٥١ بعد أن خلف في الأدب تراثاً لا تمحوه الأيام .

حسن محمود

(١) نال أندريه جيد جائزة نوبل في سنة ١٩٤٦ ومنح دكتوراة فخرية من جامعة أكسفورد في سنة ١٩٤٧ .
وترجم الدكتور طه حسين مسرحيته «أوديب وتيسبيوس» سنة ١٩٤٦ الى اللغة العربية .

مضى بنا جيار لاكاز ، صاحبنا الذي تلاقينا عنده أنا
وفرنسيس جام في أغسطس سنة ١٨٩ — إلى قصر
« الكارفوش » لمشاهدته . لم يكن باقياً من هذا القصر إلا أطلال
بالية لا تلبث أن تندرس ، وغிضة واسعة الأرجاء مهملة . كان
أريج الصيف يضرب في أنحائها ويترع ، ولم تكن ترى شيئاً مما
كان يحمي الدخول إلى هذا القصر ؛ فالحفيرة التي تكتنفه قد
ردمت إلى نصفها والسياج الذي كان يحيط به مفقود ، أما الباب
الحديدي فإنه ما كاد أحدنا يضربه بكتفه حتى خرّ منحرفاً إلى
جانب . وكذلك اندرس كل أثر لمسلك أو مجازة على الأرض
الخضراء ، حيث جاوزت الخضرة حدها المرسوم وكانت بعض
الأبقار طليقة ترعى الكلاً الكثيف الذي كان يفيض ويسترسل
كأن به مساً ، بينما لجأت أبقار أخرى إلى جوف الآجام المنبجعة

تنشد مكاناً رطباً ، وقلما كانت العين تقع ، في وسط هذا
الفيض الوحشي ، على زهرة نادرة أو شجيرة غريبة من نتاج
زراعات قديمة عاشت جاهدة صابرة واستطاعت أن تصمد لهذه
الأنواع الشائعة من النبات التي تحاول أن تكتم أنفاسها .

كنا نتبع جيوار دون أن ننبث بحرف ، فقد كنا مأخوذين بجمال
المكان وروعة الصيف ، متأثرين بكل ما في هذا الفيض من هجران
وأسى . ولما بلغنا سلم القصر وجدنا درجاته الأولى مغمورة تحت
الكلاء ، بينما كانت درجاته العليا محطمة انفصل
بعضها عن البعض الآخر . على أننا رأينا أنفسنا أمام حجرة الاستقبال
وقد امتنعت علينا أبوابها وفشلت كل محاولة لدفعها . فتسللنا إلى
القصر من منفذ في القبو كما يتسلل اللصوص . وكان هناك سلم
يرقى إلى المطابخ ، ولم نجد باباً من الأبواب الداخلية مغلقاً .
وتقدمنا من حجرة إلى أخرى في حيطة وحذر لأن الأرض كانت
في بعض المواقع تنوء وتبدو كأنها تنوي أن تميد بنا . كنا نسير
خافتي الخطو ، لا لأن أحداً كان يمكنه أن يسمعنا ولكن لأن
صدى مثلنا في هذا البيت الساكن الخاوي كان يدوي في غير
ورع ويكاد أن يروعنا . وكانت نافذات الدور الأرضي ناقصة
الألواح ؛ ورأينا في شبه الظلام الخيم على حجرة الطعام شجيرة من

البينيونا قد أرسلت خلال شغار مصاريع النافذة ، شعاباً عظيمة
بيضاء مسترخية .

كان جيرار قد فارقنا ، وبدا لنا أنه ربما كان يؤثر أن
يشاهد وحده ، مرة أخرى ، هذه الديار التي عرف ساكنيها
فواصلنا زيارتنا وحدنا . ما من شك في أنه قد تقدمنا إلى الطابق
الأول بعد أن احترق هذه الحجرات الكهنية الجرداء .

ورأيت في إحدى الحجرات غصناً من البقس متدلياً على
الجدار ، يربطه بشبه إبريم شريط قد استحال لونه ، وبدا لي أنه
يترنح في طرف رباطه ففكرت أن جيرار قد قطع شعبة منه . وهو
يمر من هذا المكان من أمد وجيز .

والتقينا به في الطابق الثاني على مقربة من نافذة أحد
الممرات . كانت هذه النافذة قد تعرّت من زجاجها وأوصل إلى
داخلها حبل تدلى من الخارج . كان هذا الحبل لجرس هممت
بجذبه في خفة حين شعرت بذراعي وقد قبض عليها جيرار ، وإذا
بحركة يده بدلا من أن توقف يدي زادت بسطاً ؛ وفجأة دوت
صوت ناقوس أجش ، قريب جداً منا ، موحش جداً بحيد
انتفضنا جميعاً في ألم ؛ ثم لما بدا أن السكون قد عاد فشمّل
المكان ، دوت دقتان صافيتان متعاقبتان سرعان ما تباعد
صداهما . والتفت إلى جيرار فرأيت شفتيه ترتجفان ... قال :

— هيا بنا ، إني في حاجة إلى استنشاق هواء غير هذا
الهواء .

وما إن خرجنا حتى اعتذر عن مصاحبتنا قائلاً إنه يريد أن
يستعلم عن أخبار بعض الناس بالضاحية . فلما أدركنا من لهجته
أننا لو تبعناه كنا من المتطفلين ، عدت أنا وجام وحدنا إلى
الر ... حيث لحق بنا جيرار في المساء .
وما لبث جام أن خاطبه قائلاً :

— يا صاحبي العزيز ، أعلم أنني قد قررت ألا أقص أية
قصة ما لم ترو لنا تلك التي نراها تفعم قلبك .
هذا وقد كانت قصص جام متاع سهراتنا .
فقال جيرار :

— إنه ليسرني حقاً أن أقص عليكم تلك القصة التي
كانت هذه الدار ، التي زرتها من قليل ، مسرحاً لها . على أنه
لم يتأت لي إلا الكشف عن بعض أطرافها ثم تخيل بعضها
الآخر ، لذا أخشى ألا يتيسر لي إلا أن ألتزم التسلسل في سرد
حوادثها ما لم أجرد كل حادث من هذه الفتنة التي تصاحب
الألغاز ، والتي كان خب الإطلاع عندي فيما مضى ، يضيفها
على كل حادث ...
فقال جام :

— لا تلتزم التسلسل إن شئت .

وقلت :

— لِمَ التزم سرد الحوادث بتسلسلها الزمني ؟ لِمَ

لاتعرضها كما تكشفت لك ؟

فقال جيار :

— تسمحان لي إذن أن أتكلم كثيراً عن نفسي .

فقال جام :

— وهل منا من يفعل غير ذلك ؟ .

وإليك قصة جيار .

أكاد لا أدرك اليوم قلة الصبر التي كانت وقتئذ تدفعني نحو الحياة دفعاً . ففي الخامسة والعشرين من العمر كنت لا أكاد أعرف من أمر الحياة شيئاً سوى عن الكتب ؛ ولعلني كنت لذلك أحسبني روائياً ، إذ كنت لا أزال أجهل كيف تمكر بنا الحوادث فتحجب عنا جانبها الذي قد يزيدنا اهتماماً بها ، ثم كم هي تعرض صعبة المنال لمن لا يعرف السبيل إليها ..

كنت أعد وقتئذ ، للدكتوراه ، رسالة عن « تاريخ عظات بوسويه » لا لأنني كنت مدفوعاً بخاصة إلى البلاغة الخطابية ، وإنما تخيرت هذا الموضوع إكراماً لأستاذي الشيخ ألبير دينوس ، فقد كان مؤلفه القيم عن « حياة بوسويه » على وشك الصدور . وما أن علم السيد دينوس بموضوع دراستي حتى عرض علي تيسير الوسائل إليه . كان له صديق قديم يدعى بنيامين فلوش ،

وكان هذا الصديق عضواً في أكاديمية النقوش والاداب ، لديه وثائق متنوعة أستطيع الإفادة منها ولا سيما أن بينها توراة فيها حواش كتبها بوسويه بخطه . وكان السيد فلوش قد اعتزل الحياة منذ خمسة عشر عاماً على التقريب ، واعتكف في قصر الكارفورش الذي اعتاد أهل الناحية تسميته بالكارفور . وهذا القصر ، الذي يقع في ضواحي بون ليفيك ، هو أحد أملاك السيد فلوش . وقال لي استاذي إن صاحبه لا يفارق قصره بتاتاً وأنه يسره أن يتقبلني فيه وأن يضع تحت تصرفي أوراقه ومكتبته وعلمه الغزير .

وتبودلت المكاتبات بين السيد دينوس والسيد فلوش ، وظهر أن الوثائق المذكورة كانت أكثر مما جعلني أستاذي في البدء أرتجى ، وإذا بي أرى الزيارة البسيطة تتحول إلى إقامة طويلة عرضها علي السيد فلوش في تلطف بناء على توصية السيد دينوس .

ومع أنه لم يكن للسيد فلوش وزوجه ولد فإنهما كانا لا يعيشان في القصر وحدهما . ومن بعض كلمات فاه بها السيد دينوس ، غير عامد ، فاستولى عليها خيالي ، أملت في أن أجد هنالك جماعة لطيفة المعشر شعرت في الحال بأنها تجتذبني إليها

أكثر مما تجتذبني وثائق العصر الجليل بما تراكم عليها من غبار ؛
وإذا بي ورسالتي لم تعد إلا نعلة ، وتخيّلتنّي أدخل القصر
لا كطالب علم وإنما أدخله مغامراً أو فتى مفسداً ، وشرعت
أحف القصر بالحوادث والمغامرات . الكارفورش ! كنت أردد
هذا الإسم الغريب الخفي ، وناجيت نفسي : هنا يتردد
هرقل ... هذا وأنا أدري بما ينتظره في سبيل الفضيلة ، ولكن
السبيل الآخر ؟ .. السبيل الآخر ...

. وجمعت ، في أواسط سبتمبر . خير ما عندي من ثياب
قليلة ، وجددت مجموعة أربطة الرقبة ، وارتحلت .

كان الليل قد أسدل حجبه حين وصلت إلى محطة
بروى — بلانجي ، وهي محطة تقع بين بون ليفيك ولزويو ، وكنت
الراكب الوحيد الذي نزل من القطار في هذه المحطة ، وأقبل
للقائي قروي يرتدي ثياب الخدم فتناول حقيبتني واقتادني نحو عربة
تقف إلى الجانب الآخر من المحطة . وكبح مشهد العربة وجوادها
جموح خيالي ، فإنه من العسير عليكما أن تتصورا شيئاً أشد منها
قبحاً ، وانصرف الحوذي ليحضر الحقيبة التي شحنتها ، وناءت
لوالب العربة بثقل الحقيبة ، وتضوعت من باطن العربة رائحة
خانقة أشبه بما يتضوع من قن الدجاج ... وأردت أن أنزل زجاج

بابها فإذا بمقبضها من الجلد ينفصل ويبقى في يدي . كانت السماء قد أمطرت في ثنایا النهار ، وكان الطريق يرقى حيناً ويهبط حيناً آخر ، وعند أول مرتقى انفصلت قطعة من عدة الجواد ، فأخرج الحوذي من تحت مقعده طرفاً من حبل وتهيأ لإصلاح الجمر . وكنت قد نزلت من العربة وعرضت عليه أن أحمل المصباح الذي أشعله ، فأتيح لي أن أرى ثياب الرجل وقد تعدد فيها الرتق .

— قلت : إن الجلد قديم بعض الشيء .
فنظر إليّ كأنما رميته بسبة ، وقال في صوت يكاد يكون محقداً .

— ماذا ! حسبك أن قد تيسر لنا الحضور لنقلك .
فسألته ، في أعذب صوت أوتيته :

— أبعيدة المسافة بيننا وبين القصر ؟

فلم يجبني (رأساً) ، بل قال :

— الحق إن العربة لا تقطع هذه المسافة كل يوم ؟
وأطرق لحظة ثم أضاف :

— لقد انقضى ما يقرب من ستة أشهر دون أن تخرج العربة من محطها .

فحاولت في يأس حملة على الكلام وقلت :

— أو لا يتنزه سادتك كثيراً ؟

— قال . أو تحسب أنه ليس لدينا سوى هذا نفعله ؟

وكان الخلل قد أصلح ، فدعاني في إشارة إلى الصعود ،

فصعدت وانطلقت بنا العربة .

كان الجواد يمضي في الطريق الصاعدة جاهداً ، ويخبّ في المنحدرة ، ويسرد في الأرض المنبسطة سرداً مروعاً ؛ وأحياناً ما كان يقف بغتة دون أن يشعرنا بما ينوي . وفكرت : لو استمر سيرنا على هذا النسق لوصلت إلى الكارفور وقد انتهى أصحاب الدار من تناول طعامهم ، بل (ووقف الجواد مرة أخرى) وقد آووا إلى فراشهم وناموا ... وكان الجوع يحز في أحشائي ؛ وبدأ مزاجي يتطور إلى الفساد ، فأدرت نظري إلى البلدة أشاهد معالمها . كانت العربة ، دون أن أتنبه إلى ما فعلت قد عدلت بنا عن الطريق الرئيسية وانعطفت في طريق ضيقة لم تلق من العناية ما لقيته الأولى . وكانت مصايح العربة لا تضيء ، عن يمينها أو يسارها ، إلا سياجاً ممتداً ، عالياً كثيفاً ، يحيط بنا من كل جانب وكأنه يسدّ علينا الطريق ولا يفسحها إلا حين نمر ، ثم ما أن نمضي حتى يلتئم في أثرنا .

ووقفت العربية مرة أخرى في أسفل مرتقى وعر المصعد ،
فأقبل الحوذي إلى الباب وفتحه قائلاً :

— هل يتفضل سيدي بالنزول ؟ إن المرتقى عسير بعض
الشيء على الجواد .

وارتقى الطريق وهو قابض على زمام جواده ، فلما بلغنا
منتصف الطريق التفت إلي ، وكنت أسير خلفه ، وقال في لهجة
زال ما فيها من جفاء :

— سوف نصل بعد قليل ، هذه هي الغيضة .
ورأيت أمامنا أجمة تعترض السماء الحاسرة ، وتبينتها فإذا
هي أشجار من الزان تكتنف مجازة ولجناها بعد برهة ثم اتصلت
المجازة بطريقنا التي غادرناها في المفرق . ودعاني الحوذي إلى
الصعود ، ووصلت بنا العربية بعد قليل إلى الباب الحديدي
ودخلنا الحديقة .

كان الظلام شديداً حالكاً بحيث تعذر عليّ أن أرى شيئاً
من واجهة القصر . وأقلتني العربية إلى سلم به ثلاث درجات
ارتقيتها وهر عينيّ ضوء مشعل سلطته عليّ امرأة من العسير
تحديد سنّها إلا أنها قليلة الظرف ، بدينة ، حقيرة الزي . وحيّتني

في شيء من الجفاء ، فالتخيت أمامها ، وقلت في شيء من التردد :

— مدام فلوش ، بلا رب ؟

قالت : بل الأنسة فردور ليس غير . إن السيد فلوش وزوجه نائمان وهما يلتمسان منك المَعذرة لتخلفهما عن لقائك ، إن الناس هنا يتناولون العشاء في ساعة متقدمة .
— قلت : وأنت يا آنستي ؟ هأنذا اضطررتك إلى السهر إلى ساعة متأخرة .

فقلت — دون أن تلتفت إليّ : إنني معتادة السهر .
وكانت قد تقدمتني إلى المدخل فأضافت :
— لعله يسرُّك أن تتناول شيئاً ؟
— حقاً ، إنني لم أتناول عشايتي بعد .

فأدخلتني إلى حجرة طعام فسيحة أعدَّ فيها عشاء طيب
ثم قالت :

— في هذه الساعة قد خبا الكور ، وفي الريف يجب أن يقنع الإنسان بما يجد .

فقلت : وأنا أجلس أمام طبق فيه لحم بارد :
— ولكن هذا كله يبدو طيباً جداً .

فجلست إلى جانب على مقعد قريب من الباب ؛ وظلت ، طوال تناولي الطعام ، خافضة الطرف ، شابكة يديها على ركبتها ، حريصة على أن تبدو في مظهر التابعة . وكنت ، كلما انقطع حديثنا الفاتر ، أعتذر إليها عن أنني أضطرها إلى ملازمتي ؛ ولكنها أفهمتني أنها تنتظر أن أنتهي من الطعام لترفع الصحف ، ثم أضافت :

— وحجرتك ، كيف تجدها بنفسك ؟

فضاعفت من حجم لقمتي وأسرعت بازدراد طعامي ازدراداً ؛ وعلى حين فجأة فتح باب المدخل ودخل قسٌ وخط الشيب رأسه ، صارم الوجه ولكنه لطيف . فأقبل باسطاً يده وقال :

— لم أرغب في أن أرجىء إلى غد سروري بتخية ضيفنا ولم أشخص إليك قبل الآن لأنني أعرف أنك كنت والآنسة أولامب فردور تتبادلان الحديث ...

قال ذلك في شبه ابتسامة مأكرة وجهها إلى الآنسة ، في حين زمت هذه شفيتها وأبدت وجهاً جامداً كأنه من خشب . ثم ، لما هممت بترك المائدة ، أضاف :

— أما وقد انتهيت من تناول طعامك ، فلنترك الآنسة

أولامب تقوم بترتيب ما عليها ترتيبه ، ولعلها ترى أنه من الملائم أن
تكمل إليّ أمر مرافقتك إلى حجرة فراشك وأن تنزل في أعمالها
عند هذا .

وانحنى في شيء من الاحترام أمام الأنسة فردور ، فحيته
تحية قصيرة ، وقالت :

— إنني أنزل ... يا سيدي الأب على رأيك . إنك
لتعرف ذلك . إنني أنزل على رأيك دائماً ...
ثم ارتدت فجأة ، وأضافت .

— كدت تنسيني أن أسأل السيد لاكاز عما يتناول في
فطوره .

— إنني أتناول ما يحلو لك يا آنسة . ماذا تتناولون عادة
هنا ؟

— كل شيء . إننا نحضر للسيدات شايًا ، وللسيد فلوش
قهوة ، وللسيد الأب حساء . و«رقهوت» Racahout للسيد
كازمير .

— وأنت يا آنسة ، ألا تتناولين شيئاً ؟

— أنا ، قهوة ولبناً فقط .

— لو سمحت لتناولت قهوة ولبناً معك .

فقال الأب وهو يمسك ذراعي :

— إيه ! إيه ! يا آنسة فردور ، حذار ؛ فيخيل إلي أن السيد لاكاز يغازلك .

فهزت كتفها ثم حيتني تحية خاطفة بينما كان الأب يجذبني لأتبعه .

كانت حجرتي في الدور الأول تقع في طرف أحد الدهاليز .

وقال الأب ، وهو يفتح باب حجرة واسعة تضيئها نار تشتعل في موقد كبير :

— غفرانك ربي ! لقد أوقدوا لك النار ! ... لعلك كنت في غنى عنها ، ولكن الليالي في هذا البلد رطبة حقاً ، والصيف في هذا العام مطير على نحو ليس بالمألوف .

وكان قد دنا من النار وبسط راحتيه العريضتين إليها على حين أدار وجهه عنها كما يدبر المتعبد أنظاره عن سبب من أسباب الإغراء والفتنة. وبدا لي أنه أكثر استعداداً للحديث منه لأنه لم يدعني أذهب إلى فراشي . وابتدرني قائلاً ، حين أبصر حقييتي :

— أرى جراسيان قد أحضر لك حاجاتك .

— فسألته: جراسيان ! أهو الحوذي الذي أقلني ؟

— نعم ، وهو بستاني القصر أيضاً . لأن عمله كحوذي قلما يشغل وقته .

— لقد ذكر لي فعلاً أن العربة قلما تخرج .
— ما من مرة خرجت فيها إلا عُذُّ ذلك حدثاً تاريخياً .
هذا ، ومنذ أمد بعيد والسيد دي سان أوربول لا يملك جياداً .
وفي المناسبات الكبرى ، كمناسبة الليلة ، نستعير للعربة جواداً
من المزرعة .

فرددت في دهشة :

— السيد دي سان أوربول ؟
— نعم ، إنك حضرت إلى هنا للقاء السيد فلوش ،
ولكن الكارفورش ليست له وإنما هي لأخي زوجته ؛ وغداً سوف
تشرف بمعرفة السيد دي سان أوربول وزوجه .
— ومن يكون السيد كازمير الذي لا أعرف عنه إلا أنه
يتناول الرقهوات في الصباح ؟
— إنه حفيدهما وتلميذي ؛ ولي ثلاثة أعوام وأنا ، بإذنه
تعالى ، أقوم بتعليمه .

قال ذلك وهو يغمض جفنيه في شبه استغفار خاشع
كأنه يتحدث عن أمير من دم كريم ، وسأله :
— أليس أبواه هنا ؟

قال وهو يزعم شفثيه زمناً شديداً :

— إنهما على سفر .
ثم أضاف في الحال :
— أنا على علم يا سيدي بموضوع هذه الدراسات الجليلة
الورعة التي حملتك على المجيء إلى هنا .
فقاطعته ضاحكاً :
— لا تسرفن في الظن بورعها . إنما اهتمامي بها اهتمام
مؤرخ فحسب .
فأشاح بيده ، كأنه يبعد عن خاطره ما من شأنه أن
يكدره ، وقال :

إن للتاريخ أيضاً حقوقه ، ولسوف تلقى في السيد فلوش
الطف مرشد وأصدق عون ...
— هذا ما أكدته لي أستاذي دينوس .
— آه ! أنت تلميذ ألبير دينوس !
وزم شفتيه مرة أخرى ، فسأله دون تبصر :
— أو قد حضرت عليه ؟
فأجاب في جفاء :
— إن ما أعرفه عنه قد ألزمني الحيلة ... إنه مغامر من
مغامري الفكر .

من كان في سنك أغراه في يسر كل ما خرج عن
المألوف .

ولما رأي لا أجييه ، استأنف قائلاً :
— لقد كان لآرائه بعض الأثر في الشباب ؛ ولكنه بلغني
أن الشباب بدأ يخرج عليها الآن .

كنت أشعر بأن رغبتني في الجدل أقل منها في النوم ، فلما
رأى أنه لن يظفر مني بجواب عاد يقول :

— سوف يكون السيد فلوش أصلح لك نصحاً .

وأضاف ، لما رأى تشاؤمي الذي لم أحاول إخفاءه :

— إن الليل قد تقدم ؛ إن شئت عدنا إلى هذا الحديث

غداً فيما قد نجد من فراغ ، فلا بد أنك بعد هذا السفر متعب .

— حقاً يا سيدي الأب ، إنني أكاد أقع من شدة التعب .

وما أن انصرف عني حتى انتزعت الخطب من الموقد

وفتحت النافذة على سعتها ، ودفعت مصاريحها الخشبية فهبَّ

نفح شديد خفي آمال لهب شمعتي ، فأطفأتها حتى أتأمل الليل

وأترؤى .

كانت حجرتي تطل على الغيضة ولكن لا من أمام

كحجرات الممر الكبير التي تغم بلا ريب ، بمنظر يمتد فيه البصر

إلى أبعد مما يتاح لي في حجرتي . وأوقف بصري سياج من الأشجار لا يظهر من فوقه إلا طرف ضئيل من السماء، تألق فيه الهلال روحاً قليلاً ثم غشيه الغمام . وكانت السماء قد أمطرت والأغصان نديّة لا تكف عن القطر .

وفكرت وأنا أغلق النافذة : إن هذا الجو يشيك عن الخروج . وكانت هذه اللحظة من التأمل قد اختلجت لها نفسي أكثر مما اختلج لها بدني ، فأعدت الخطب إلى الموقد وأزكيت النار فيه ، وما كان أشد اغتباطي لما أن وجدت في فراشي جرّة ماء ساخن ، كانت الأنسة فردور — في حسن رعايتها بلا ريب — قد زجّتها فيه .

وتنبهت بعد حين إلى أنني أغفلت وضع حذائي أمام الباب ، فنهضت وخرجت برهة إلى الدهليز ، فرأيت الأنسة تمضي إلى الطرف الآخر من الدار . كانت حجرتها فوق حجرتي ، دلني على ذلك خطاها الثقيلة التي زلزلت السقف ؛ ثم عاد السكون فشمّل المكان . وإذ كنت أستغرق في نوم عميق رفعت الدار مرساتها لتجتاز عباب الليل .

واستيقظت في الصباح مبكراً على أصوات صادرة من المطبخ ، وكان أحد أبوابه يفتح من تحت نافذة غرفتي . فلما أن رفعت مصاريعها نعمت بمشهد سماء صافية . وكانت الحديقة ، وآثار المطر على أديمها لم تُمحَ بعد تضيوي وتتلأأ ؛ وكان الجو مائلاً إلى الزرقة ، وهممت بإغلاق النافذة حين وقعت عيناى على صبي يخرج من حديقة البقول ويسرع إلى المطبخ . لم يكن من اليسير تحديد سن الصبي فقد كان وجهه يبدو أكبر من جسمه بثلاث أو أربع مرات ؛ وكان مشوه البدن ، ملتوي القامة ، مقوس الساقين يسير منحرفاً ويتقدم خباً كأن لا مناص له من أن تشتبك قدماه إن سار قُدماً... ومن الواضح أن هذا الصبي لم يكن إلا كازمير تلميذ الأب .

وكان يطفر إلى جانبه كلب ضخم ، يشب حين يشب

ويحتفي به أشد الحفاوة؛ وكان الصبي يدفعه ويحتمي جهده طاقته من فيض حفاوته المخلة بتوازنه غير أنه حين أشرف على المطبخ إذا بالكلب يدفعه ويطره أرضاً فتدحرج الصبي في الوحل. وخفت إليه امرأة بدينة أخذت تزجره وهي تعينه على النهوض،
قائلة:

— الله أكبر! كيف تفعل بنفسك هذا الفعل؟ لكم أوصيناك بترك «ترفو» في محط العربة... هلم! أقبل حتى أنظفك.

وجذبت الصبي إلى المطبخ؛ فسمعت حينئذ طرقات بياني، ودخلت خادمة تحمل ماء ساخناً. وبعد ربع ساعة دق الجرس مؤذناً بالفطور.

فلما أدخلت إلى حجرة الطعام، تقدم الأب للقاء قائلاً:
— ها هو ذا ضيفنا الظريف.

وكانت مدام فلوش قد نهضت من مقعدها ووقفت لتحيتي؛ على أنها وهي واقفة لم تكن تبدو أكبر مما كانت وهي جالسة. وانحنيت لتحيتهما انحناء شديداً فأجابت على تحيتي بحركة سريعة أمالت جسمها حتى خيل إلي أنها تغطس. ما من شك في أنه قد هبط على هامتها في حين من الأحيان حدث جلال عمل على إغاصه رأسها بين كتفها ثم ظل الرأس بعد ذلك

غائصاً بل. ومنحرفاً دون أمل في أن يسترد يوماً وضعه . ووقف السيد فلوش إلى جانب زوجه باسطاً يده لتحيتي . وبدأ لي الشيخان يتشابهان طولاً ولباساً وسناً وكأنهما من لحم واحد... ولبثنا ساعة نتبادل عبارات التحية الدارجة ونتكلم في وقت واحد، ثم ساد صمت جليل ودخلت الأنسة فردور تحمل إناء الشاي . وقالت مدام فلوش، بعد برهة، وهي تدير نصفها الأعلى إلينا لأن رأسها كان لا يدور:

— إن الأنسة أولامب، صديقتنا، كانت تريد أن تسألك: هل كان نومك هادئاً، وهل وجدت السرير مريحاً؟

فأجبت بأنني نمت أطيب النوم وأن جرة الماء الساخن التي وجدتتها في فراشي نفعتني نفعاً محققاً . وخرجت الأنسة فردور بعد أن حيتني ، فعادت مدام فلوش تسألني :

— ألم تزعجك ، في الصباح ، الأصوات الصادرة من المطبخ ؟

فلما أجبت بالنفي قالت :

— أرجوك أن تذكر شكواك ، إن كان لك ما تشتكي منه ؛ فليس أيسر عندي من إعداد حجرة أخرى لك .

وكان السيد فلوش ، دون أن يفوه بحرف ، يهز رأسه إلى جانب ويتسسم مؤمناً على كل عبارة تنطق بها زوجته .
قلت :

— إنني أرى تماماً أن المنزل فسيح جداً ، ولكنني أؤكد لكم أنه ليس في الإمكان أن أنزل أطيّب مما نزلت .
فقال الأب :

— إن السيد فلوش وزوجه يجدان في إكرام ضيفهما ورعايته سروراً عظيماً .
وأحضرت الأنسة أولامب طبقاً به خبز مقدد ، ودفعت أمامها الصبي الأعرج الذي رأيته من ساعة يتدحرج في الوحل ، فقبض الأب على ذراع الصبي قائلاً .
— هلم يا كازمير ! لقد جاوزت سن الطفولة ؛ تقدم ، حيّ السيد لاكاز كما يحيي الرجال ، مدّ إليه يدك ... أنظر أمامك ! ...

ثم التفت إليّ ، وكأنه يعتذر عنه ، وقال .
— إنه لم يألّف بعد عادات المجتمع وآدابه ...
كان استحياء الطفل يضايقني ، فوجهت خطابي إلى مدام فلوش متناسياً ما ذكره لي الأب بالأمس :
— أهو حفيدكم ؟ .

فأجابت : إنه حفيد أختي ، وسترى عما قليل جديّه ،
أختي وزوجها .

وقالت الآنسة فردور مفصحة :

— كان لا ينبغي العودة إلى المنزل لأنه لطّخ ثيابه بالوحل
وهو يلعب مع ترنو .

فالتفت إلى الصبي وقلت ملاطفاً :

— يا له من لعب طريف ! لقد رأيتك من نافذتي
والكلب يطرحك أرضاً . هل أصابك بسوء ؟ .
فأوضح الأب بدوره :

— ينبغي أن نذكر للسيد لاكاز أن التوازن أقل ما يحسنه
الصبي .

ففكرت : حقاً ! إنني أستبين ذلك بنفسي وليس في
حاجة إلى الإشارة إليه . وفجأة غدا هذا الأب الضخم الجثة ،
الذي لا تستقر عينه على لون ثقيل الظل بغيضاً . ولم يجب
الصبي على سؤالي ولكن علت وجهه حمرة الخجل ، فأسفت
على عبارتي لعله أن يكون قد لمس فيها تعريضاً بعاهته . وكان
الأب قد نهض عن المائدة بعد تناول حسائه ، وأخذ يضرب في
الحجرة جيئة وذهاباً . وكان من دأبه إذا ما سكّت أن يزعم شفّتيه
زماً وثيقاً حتى لتبدو شفّته العليا بارزة مشرّبة كشفة من تقدمت

بهم السن ففضت أفواههم . ثم وقف خلف الصبي ، وبينما كان هذا يقرع طاسه قال :

— هلم ! هلم يافتى ، إن ابن زهير في انتظارنا .
ونهض الصبي ثم خرج كلاهما .
وما أن انتهينا من الفطور حتى دعاني السيد فلوش بإشارة
قائلاً :

— هياّ معي إلى الحديقة يا صاحبي الفتى ، تعال حدثني
عن باريس المفكرة .

كانت عبارات السيد فلوش إذا ما تنفّس الصبح تكتسي
ثوباً نضيراً ؛ ثم ، دون أن ينتظر مني جواباً ، أخذ يسألني عن
صديقه جاستون بواسية وعن غيره من العلماء الذين كان من
المحتمل أن أكون قد درست عليهم والذين كان لا يزال يرسلهم
بين حين وحين . وسألني عن ميولي ودراساتي . وبديهي أنني لم
أحدثه عن طموحاتي الأدبية ، ولم أبين له من نفسي إلا ناحية
السريوني . ثم أخذ يروي تاريخ الكارفورش التي لم يفارقها منذ حلّ
بها من خمسة عشر عاماً على التقريب ؛ وكذلك روى لي تاريخ
القصد والغبضة ، وأرجأ إلى ما بعد تاريخ الأسرة التي كانت تقطن

القصر من قبل ، ولكنه قصّ عليّ كيف أستحوذ على وثائق القرن الثامن عشر التي تهمني لرسالتي ... وكان يخطو خطواً سريعاً ، أو على الأصح كان يخبّ إلى جانبي خبياً ، ولاحظت أن سرواله كان يهوى من أمام ويتثنى كالمنفاخ إلى أسفل قدميه في حين كان من خلف مرفوعاً إلى أعلى النعل ، دون أن أدرك بأية وسيلة استطاع أن يرفعه . ولم أعد أعيره إلا أذنأ لاهية إذ أن الفكر استولى عليه خمود وثقل بفعل ما كان ينفثه النبات من حولي في هذا الجو الفاتر . وبينما نحن على هذه الحال نقطع طريقاً اكتنفت جانبيها أشجار من الكستناء وانبسقت فروعها وتلاقت من فوق رؤوسنا كالسقيفة ، أشرفنا على طرف الغيضة ، ووجدنا ، خلف شجرة من العوسج ، مقعداً في حمى من الشمس ؛ فدعاني إلى الجلوس ، وفجأة قال :

— أوقد ذكر لك الأب سانقال ان سلفي به بعض ... ؟

ولم يتم عبارته ولكنه مس جبينه بينانه .

ولم أجد ما أجيبه به لشدة ما اعتراني من دهشة وذهول ؛

فاستأنف قوله :

— نعم ، سلفي البارون دي سان أوربول ، لعل الأب لم

يلذكر لك ذلك ، كما لم يذكره لي أنا ؛ ولكنني أعرف أنه يعتقد

كما أعتقد أنه أيضاً ، وعني ؟ ألم يقل لك الأب أن بي
بعض ... ؟

— يا سيد فلوش ، كيف بك تظن ؟ ...
فقال ، وهو يربت على يدي في غير كلفة :
— ولكن ، لو صح ذلك يا صاحبي لوجدته أمراً
طبيعياً ، ما الحيلة ونحن هنا قد اعتدنا الاعتكاف عن العالم بمعزل
عن نشاط الخارج وحركته لا شيء يأتينا بـ... بتغيير ، كيف
السبيل إلى الإعراب عن ذلك ؟ نعم وظريف منك أن حضرت
للقائنا .

فلما حاولت أن أحرك يدي معترضاً ، أعاد قوله :
— نعم ، ظريف منك . وسأكتب هذا المساء نفسه إلى
صديقي العزيز دينوس لأبلغه ذلك . هذا وإنك لو حدثتني بما
يجيش في قلبك ويضطرب به فكرك ... فإنني واثق من أنني لن
أفهمك ...

ماذا كان في وسعي قوله ؟ فنقبت الرمل بطرف عصاي ؛
وعاد إلى الكلام :

— ألا ترى أننا فقدنا هنا كل اتصال بالعالم ؟ لا ، لا .
لا تعترض عبثاً . إن البارون أصم كالقرعة ، ولكنه متأنق يحرص

على إخفاء صممه وهو يؤثر أن يتكلف السمع على أن يضطر
محدثه إلى رفع صوته . أما أنا فيخيل إلي أنني ، فيما يتعلق بالآراء
الحديثة ، أعادله صمماً . هذا ، وأنا لا أجد ضرراً في ذلك ، بل
ولا أحاول فهم شيء من هذه الآراء . لقد إنتهت بي عشرتي
المتصلة بماسيون وبوسويه إلى الإيمان بأن المشاكل التي كانت
تشغل بال هذين العقليين العظميين لا تقل روعة وخطورة عن
المشاكل التي استهوتني في شبابي . ولا شك عندي في أن هذين
العقليين العظميين كانا لا يفهمان مشاكل شبابي ، كما أنني لا
أفهم اليوم المشاكل التي تستهويكم لذا ، إن شئت يا زميل
المستقبل ، أؤثر أن تحدثني عن دراساتك ما دامت هي نفس
دراساتي ، واغتفر لي ألا أسألك عن الموسيقيين والشعراء والخطباء
الذين أنت بهم كلف ، أو عن نظام الحكم الذي تراه في نظرك
أصلح .

ونظر إلى ساعة مستديرة معلقة في شريط أسود ؛ ثم
نهض ، قائلاً :

— فلنعد الآن . إنني لأعتبر يومي ضائعاً ما لم أبدأ عملي
في العاشرة .

ومددت له ذراعي فتأبطها . ولما كنت أبطىء السير
أحياناً ، من أجله كان يقول :

— أسرع ! أسرع . إن الأفكار أشبه بالأزهار ، ما
أقتطف منها صباحاً طالت نضرتة .
أما مكتبة الكارفورش فقد كانت مكونة من حجرتين
يفصلهما ستار بسيط ؛ إحداهما ، وهي مقر السيد فلوش ،
صغيرة ضيقة ترقى إليها بثلاث درجات ، وكان يعمل فيها وهو
جالس إلى منضدة موضوعة أمام نافذة محجوبة المنظر ، تحجبه
شجرة من الدردار أو النشم أرسلت فروعها إلى الخارج تضربه ؛
وكان على المنضدة مصباح ذو خزان علاه غطاء من خزف
أخضر ، وتحت المنضدة وسادة ضخمة بها ثغرة مهدت لتأوي
القدمين وتقيهما البرد . وكان في إحدى الزوايا موقد صغير ، وفي
زاوية أخرى مائدة محملة بكتب اللغة ، وبين الزاويتين خزانة
أعدت على شكل مصنف . أما الحجرة الأخرى فقد كانت
متسعة ، تحوي عدداً عظيماً من الكتب غطي الجدار وبلغ
السقف .

— وقال السيد فلوش : هنا مقرك .
فلما أن صحت معترضاً ، قال :
— لا ، لا . إنني معتاد الجلوس في المقصورة . والحق ،
أشعر أنني فيها أقرب نفساً ، بل ويخيل إلي أن فكري يستجمع
شতاته فيها ويلتئم دونك المنضدة الكبرى ، احتلها بلا حرج .

وإن شئت ففي الإمكان إسدال الستار حتى لا يزعج أحدنا الآخر .

فاعترضت قائلاً :

— لا تسدله من أجلي ؛ إن كنت حتى اليوم قد شعرت
بحاجتي إلى الاعتزال وأنا أعمل فإنني لا ...

— قال . حسناً ! ستركه إذن مرفوعاً ؛ وفيما يتصل بي
فسروري سيكون عظيماً بأن أشاهدك بطرف .

والحق ، ما رفعت رأسي عن عملي ، في الأيام التالية ، إلا
التقت عيني بعينه فإذا به ييسم هازاً رأسه ، أو يحول عينه عني
متكلفاً الإنهماك في مطالعته ، متحرجاً من إزعاجي .

وكذلك اهتمتُ تَوّاً بأن يضع تحت تصرفي الكتب
والمخطوطات التي تهمني ، وقد كان أكثرها محشوداً في مصنف
المقصورة ؛ وكانت من العدد والأهمية بما يفوق كل ما ذكره
أستاذي دينوس . وكان يلزمني أسبوع على الأقل ليتسنى لي نقل
البيانات القيمة التي قد أعتز عليها في بحثي . أخيراً ، فتح السيد
فلوش خزانة صغيرة كانت بجانب المصنف وأخرج منها الكتاب
المقدس الشهير الذي كان يملكه بوسويه ، والذي دون فيه « نسر
مدينة مو^(١) » ، أمام الآيات التي أوحى إليه بموضوع غطاته ،

(١) هكذا كان يسمى بوسويه .

التاريخ الذي ألقيت فيه هذه الغطات ، ودهشت من أن ألبير دينوس لم يفد من هذه البيانات في رسائله ؛ ولكن السيد فلوش أخبرني أنه لم يحصل على هذا الكتاب إلا من زمن قريب . واستطرد قائلاً :

— لقد وضعت رسالة عنه ، وإني لسعيد . لأنني لم أحط أحداً علماً بها ، فيمكنك أن تستفيد بما فيها من جديد وأنت تصنع رسالتك .
فقلت :

— سوف أكون مدينة لك ولتلفتك بكل فضل لرسالتي . أو قد ترضى ، على الأقل ، أن أهديك أياها دليلاً مني على اعترافي بفضلك ؟
فابتسم في حزن ، وقال :

— من كان مثلي موشكاً على فراق الدنيا ليغبط بكل ما يبعث فيه الأمل في بعض الخلود .
ورأيت أنه لا يليق بي أن أزيد على ذلك .

ثم عاود قوله :
والآن تولى المكتبة ، ولا تحسبن لي حساباً إلا أن تكون راعياً في سؤالي . خذ جميع الأوراق التي تلزمك ... وإلى اللقاء ! ...

وبينما كان يهبط الدرجات الثلاث ابتسمت إليه ، فحرك
يده أمام عينيه قائلاً : إلى اللقاء !

وحملت إلى الحجرة الكبرى الأوراق التي تؤلف بداية
عملي . وكنت أستطيع ، دون مغادرة المنضدة التي جلست
إليها ، أن أشاهد السيد فلوش وهو يتحرك بجسمه الصغير ، تارة
يفتح أدراجاً ثم يغلقها وأخرى يخرج أوراقاً ثم يعيدها ، متكلفاً
أشد الإهتمام في العمل . والحق ، ما أحسبه إلا كان مضطرباً
جداً ، منزعجاً لوجودي ، لأن أقل حدث يلم بهذه الحياة البالغة
النظام كان يزعزعها ويدخل على العقل شيئاً من التبلبل . وأخيراً
جلس في مقعده وغاص فيه إلى نصفه ثم قبع لا يتحرك ...

أما أنا فقد تكلفت الإهتمام في العمل ؛ غير أنه تعذر
علي أن أملك زمام فكري ، بل ولم أحاول أن أكلمه ، وأخذ
فكري يطوف بي حول الكارفورش طوافك حول برج عليك أن
تجد منفذاً إليه . ولم يكن يعنيني إذ ذاك إلا أن أسوق الدليل
لنفسي على أنني لبيب فطن وأن أقنعها بذلك . كنت أناجيه
بقولي : تدعين أن صاحبك روائي ! الآن تختبر فظنته ... تقولين
أنه يجيد الوصف ؟ لعله كذلك ، ولكن الوصف ليس بالمطلوب
الآن ، وإنما المطلوب أن يكشف عن الحقيقة المستترة خلف

مظاهر الأشياء إن كان صاحبك ، في هذه الفترة القصيرة التي
قد أتيت له فيها الإقامة في الكارفورش ، يترك حركة ما تمر ، أو
رجفة ما تنقضي ، دون أن يأتبك بدوافعها النفسية والتاريخية
ويفسرها لك تفسيراً صحيحاً ، فإنه إذن ليجهلن مهنته .

ورفعت بصري إلى السيد فلوش فرأيت وجهه يعرض لي
من جانب وشاهدت أنفاً ضخماً رخواً لا يعرب عن شيء ،
وحاجبين شائكين وذقناً أمد لا يكف عن الحركة كأن صاحبه
يلوك مضغة في فمه ... وفكرت : ما من شيء يجعل وجه
الإنسان أشد غموضاً قدر هذا النقاب الذي تبضفيه عليه طيبة
القلب .

وباغتني الجرس الثاني الذي يؤذن بالغداء وأنا أقلب هذه
الخواطر في رأسي .

وجدتني في الغداء والسيد فلوش يقدمني إلى سان أوربول وزوجه دون أي تمهيد كلامي . لقد كان في وسع الأب أن ينهني إلى ذلك مساء أمس . وأذكر أنني فيما مضى قد تولتني نفس الدهشة لما أن شاهدت في حديقة الحيوان طائر النمام المنبطح المتقار ؛ ولست أدري أيهما كان أغرب وأعجب منظرًا . كانا صنوين يتماثلان ويتوافقان أشد التماثل والتوافق ، أشبه في ذلك بالسيد فلوش وزوجه . ولعلهما إن وضعا في أحد متاحف الطبيعة أن يكون مكانهما ، دون تردد ما ، تحت حاجز من زجاج أحدهما قَبْل الآخر ، بين هذه « الأنواع المنقرضة » التي تحتويها متاحف الطبيعة . وأحسست ، أول ما رأيتهما ، بإعجاب غامض كالذي تحسّه عندما يقع نظرنا على تحفة فنية أو آية من آيات الطبيعة ؛ فلقد لبثت ، أول ما نظرتهما ، أرمقهما

في ذهول وعجز عن التفكير ، ولم أستطع أن أحلل إحساسي إلا بعد حين قليل ، شيئاً فشيئاً ..

كان البارون نرسييس دي سان أوريول يرتدي سروالاً قصيراً ، ويحتذي حذاءً ذي إبزيم شديد البروز ؛ ورباط رقبة من الموسلين ، وكانت جوزة عنقه ، وهي تكاد تعدل الذقن في بروزه ، تطل من ثغرة الياقة وتحاول أن تتوارى خلف وشاح من الحرير الجائش لقه حول عنقه . أما ذقنه فكنت تراه ، إذا ما حرك فكه ، يبدل جهداً عجبياً ليتصل بأنفه ، بينما كان الأنف من جهته يسعى إليه . وكانت إحدى عينيه مغلقة في إحكام ؛ أما الأخرى فقد أشرأب إليها طرف الشفة جاذباً في إثره خطوط الوجه ، وكانت هذه العين صافية ، براقية ، تكمن خلف الوجنة . كأنها تقول : حذار ! حذار ! إنني وحدي ، ولكن لا يغيب عن نظري شيء .

أما مدام دي سان أوريول ، زوجه ، فقد كانت تغوص في لجة من الموشى الزائف ، وكنت ترى يديها الطويلتين المثقلتين بالخواتم الضخمة ترتعدان في جوف كميتها . وأحاط بالوجه كله شيء أشبه بكساء طويل من الحرير الأسود مبطن بأطراف من الموشى ؛ وقد عقدت حول عنقها شريطين من الحرير قد استحال

لونهما إلى بياض بفعل ما تساقط عليهما من مسحوق كانت تذرهِ
على وجه لطّخته أبشع التلطّيح .

فلما أنا دخلت ، انتصبت واقفة إلى جانب وألقت
برأسها إلى خلف ثم صاحت أو قالت في صوت بالغ الحدة لا
نغم فيه :

لقد مضى زمن كان الناس فيه يا أختاه أكثر رعاية لمن
كان يدعى سان أوربول ...

على من كانت غاضبة ؟ ما من شك في أنها كانت تبغي
إشعاري وإشعار أختها بأنني لم أكن هنا عند آل فلوش ، فإنها
استأنفت قولها وهي تميل رأسها إلى جانب ، وترفع يمينها وتصر
بها إلّاي :

— إن البارون ليسرهِ ، يا سيدي ، كما يسرني أن نتقبلك
إلى مائدتنا .

ولثمت شفتاي خاتماً في يدها ، ثم نصبت قامتي وأنا
خجل من هذا اللثم إذ بدا لي أن موقفي بين آل فلوش وآل سان
أوربول ينذر بأن يكون حرجاً عسيراً ؛ غير أن مدام فلوش كانت
تبدو كأنها لا تحفل بما قالت أختها ، أما البارون فقد كنت في
ريبة من أمرهِ رغم تلطفهِ إلي ومعسول كلامهِ . ولم يتمكن أحد ،
أثناء إقامتي كلها في الكارفورش ، من أن يقنعه بالكف عن

مناداتي باسم السيد دي لاس كازس ، لأن مناداتي بهذا الاسم كانت تتيح له أن يؤكد بأنه كثيراً ما رأى والدي في التويلري .. وأن يذكر عما لي كان يلعب معه الورق ... وكان يقول .

— لقد كان حقاً إنساناً غريب الأطوار ! ما من مرة طرح فيها ورقة من أوراقه الكاسبة إلا صاح : دومينو ! ...

وكان حديث البارون يكاد يكون كله من هذا القبيل ؛ ولم يكن أحد سواه يكاد يتكلم على المائدة . وما أن كنا ننتهي من الطعام حتى كان يحتبس في صمت أشبه بصمت المومياء ... فلما أن هممنا بترك الحجرة ، دنت مني مدام فلوش وأسرت في صوت منخفض :

— لعل السيد لاكاز يتلطف فيسمح لي بحديث معه ؟ وبدا لي أنها لم تكن راغبة في أن يسمع أحد هذا الحديث ، إذ جذبتني إلى جانب حديقة البقول قائلة في صوت مرتفع إنها تبغي أن تريني الأشجار المعرشة على الجدران . فلما أيقنت أن أحداً لا يستطيع سماعنا ، قالت :

— إنما أردت أن أحدثك عن حفيد أختي .. أنا لا أريد أن تظنني نافذة لتعاليم الأب سانتال ... أما وأنت تنهل من مناهل العلم نفسها (وهذه هي عبارتها) ففي وسعك أن تكون لي خير مرشد .

— قلت : تكلمي يا سيدتي ، فيمكنك أن تثقي في إخلاصي .

— قالت : إنني لأخشى أن يكون موضوع رسالته من الموضوعات الخاصة التي لا طاقة بها لصبي في سنه .
فسألته في شيء من القلق :
— أية رسالة ؟

— رسالته للبكالوريا .

فآليت لا أدهش لشيء بعد هذا ، وقلت .

— آه ! حسناً ، وما موضوع رسالته ؟

قالت : إن الأب يخشى من أن يكون للموضوعات الأدبية أو الموضوعات الفلسفية الخاصة أثر سيء في عقل صبي ميال إلى الأحلام .. (هذا رأي الأب) ؛ لذلك أوحى إلى كازمير أن يختار موضوعاً تاريخياً .

— ولكن يا سيدتي ، إن لهذا الرأي قدره من الصواب ، وما الموضوع الذي اختاره ؟

— أرجو المَعذرة ، إنني أخشى تحريف اسمه . ابن رشد .

— ما من شك في أن لدى الأب أسباباً لاختيار هذا الموضوع الذي قد يبدو لأول وهلة طريفاً إلى حد ما .

— لقد اختاراه معاً . أما الأسباب التي يذكرها الأب ليرر بها هذا الاختيار فإنني مستعدة للاقتناع بها : لقد قال الأب أن هذا الموضوع فيه فتنة خاصة ، أشبه بتلك التي نجدها في القصص ؛ ومن شأن هذه الفتنة أن تسترعي انتباه كازمير وتركز فكره والحق ما أكثر ما يشرذ فكره . ثم (ويظهر أن السادة המתحنيين يعلقون على هذا أهمية عظيمة) أن الموضوع لم يعالج من قبل .

— حقاً ، أنا لا أذكر أنه ..

فقاطعتني قائلة :

— وبالطبع ، أنت مضطر ، حتى تقع على موضوع لم يعالج من قبل ، إلى أن تطرق مجاهر لم تطرق !
— بالطبع !

على أنني أخبرك بما أخشاه ... ولكن لعلني أسرف ؟
— يا سيدتي ، أتمس منك أن تثقني في حسن استعدادي التام لمعاونتك ، ورغبتني التي لا حد لها في خدمتك .
— حسناً ، أنا لا أضع موضع الشك أن كازمير سوف يكون قادراً بعد حين على التقدم برسائله للامتحان ، وعلى النجاح ... ؛ ولكنني أخشى أن يكون الأب ، رغبة منه في

التخصيص ، وهي رغبة سابقة لأوانها ، مهملاً بعض الإهمال أمر
التعليم العام ، الحساب أو الفلك على سبيل المثال .

— فسألته في حيرة : وما رأي السيد فلوش في هذا
كله ؟

— قالت : إن السيد فلوش يوافق على كل ما يفعل الأب
أو يقول .

— فسألها ، وأبواه ؟

فأجابت بعد تردد قليل . لقد عهد بالصبي إلينا .

ثم توقفت عن السير وقالت :

— ليتك يا سيدي تتفضل بالحديث إلى كازمير كيما
تقف على أمره دون أن يوهم حديثك بأنك تتعمد
الإستقصاء ... حادثة خاصة في منأى عن الأب فإنه سيء
الظن . هذا ، وأنا واثقة من أنك تستطيع ...

— قلت : بكل سرور يا سيدتي . لن يتعذر عليّ أن
أجد تعلقة ما للخروج مع الصبي . سوف أسأله أن يريني بعض
أرجاء الغيضة ...

— قالت : إنه يبدو أول ما يبدو خنجولاً حياً قبل من
لا يعرفهم ، ولكنه أنيس بطبعه .

— سوف تكونان عاجلاً صاحبين .
وبعد قليل اجتمعنا على طعام العصر ، فقالت :
— كازمير ، ينبغي أن تُري السيد لاكاز المحجر ، فإنني
واثقة من أن ذلك سيثير اهتمامه .
ثم دنت مني وقالت :
— عَجْلاً بالرحيل قبل أن يحضر الأب ، فلعله أن يرغب
في مصاحبتكما .
وخرجتُ إلى الغيضة على الأثر ، يقودني الصبي وهو
يحجل . وبدأت حديثي معه قائلاً :
— الآن أوان الفسحة .
فلم يجب بشيء ، فسألته .
— ألا تعمل بعد طعام العصر بتاتاً ؟
— قال : بلى ، ولكن لم يعد عندي اليوم ما أنسخه .
— وما تنسخ ؟
قال : الرسالة .
— آه ...

ثم ، بعد استقصاء قليل ، علمت أن هذه الرسالة إنما
هي بحث خاص للأب عهد به إلى الصبي لنسخه لأن خطه سليم
وكان عمله يتلخص في نقل أربع صور من الرسالة في أربع

كراسات مغلقة ، وكان ينقل كل يوم بضع صفحات . على أن الصبي أكد لي أنه يروقه أن « ينسخ » .

— فسألته : وفيه كتابة أربع صور ؟

— قال : لأنني استظهر في عسر .

— وهل تفهم ما تكتب ؟

— أحياناً ما أفهم ، وأحياناً يشرح لي الأب أو يقول إنني

سوف أفهم إذا ما تقدمت في السن .

والواقع أن الأب كان قد صنع من تلميذه شيئاً أشبه بأمين

يكلفه بالنسخ ، أعلى هذا الوجه كان يفهم واجبه؟ وشعرت بقلبي

يغمره الأسى ، وفكرت : لا بد من أن يجري لي مع الأب حديث

مثير . وكان الغضب قد دفعني إلى إسراع خطوي دون أن أتنبه

إلى أن كازمير كان يجهد إلى جانبي ليلاحقني ، ورأيت غارقاً في

لجة من العرق ، فبسطت يدي إليه فاحتفظ بها في يده وشرع

يخبّ إلى جانبي بينما أمهلت بخطوي .

— وعدت إلى سؤاله : أهذه الرسالة من وضعك ؟

— فأجاب توأ : لا .

ولكنني لما تقصيت أدركت أن محصولة قليل . وما من

شك في أنه تأثر لدهشتي لأنه أضاف :

— إنني أطالع كثيراً .

قال ذلك كما يقول المعدم : لدي من الثياب غير هذه التي أرتديها .

— قلت : وما تستهويك مطالعته ؟

— قال : كتب الأسفار الكبرى .

ثم أدار عينيه إلي فرأيت أن الأمن قد حل فيهما محل القلق ، وقال :

— أتعرف أن الأب كان في الصين !

وأعربت لهجته عن إعجاب باستاذة وتجلة لا حد لها .
كنا قد أشرفنا على هذا الموضع من الغيضة الذي كانت مدام فلوش تسميه « المحجر » ، فإذا به أشبه بغور حوله أحراش تحجبه . وجلسنا على حجر تدفقه شمس قد مالت إلى الغروب . وكانت الغيضة تنتهي عند هذا الموضع دون أن يحدها حد . كنا قد تركنا عن يسارنا طريقاً ننحدر منحرفة إلى جانب يعترضها حاجز صغير ، وكان انحدار الطريق لحده بمشاة تحصين انشأته الطبيعة إلى حدود الغيضة .

— وسألت كازمير : وأنت يا كازمير ، هل قمت

بأسفار !

فطأطأ رأسه ولم يجب ...

كان الوادي من تحتنا تغمره الظلمة ، وكانت الشمس

تلامس تلاً وقف أمامنا معترضاً الأفق . وكانت هنالك طائفة من أشجار الكستناء والبلوط تتوج أكمة جيوية انبثت فيها أوكار الأرانب . كان المنظر رائعاً موحشاً ، يتعارض في روعته ووحشته مع الفتور الذي عم المنطقة . وفجأة صاح كازمير :

أنظر إلى الأرانب ..

وبعد قليل أضاف وهو يشير بأصبعه إلى أعالي الأكمة :
— لقد صعدت يوماً مع الأب إلى هذا المكان .

ومررنا في عودتنا ببركة غشيتها أعشاب مائية ، فوعدت كازمير بأن أعد له قصبة وشصاً وأعلمه كيف يصيد الضفادع . ولم تختلف هذه الليلة الأولى ، التي لم تمتد إلى ما بعد التاسعة ، عما تلاها من ليال (وكذلك عما سبقها فيما أظن) إذ راعى مضيقي وزوجه ألا يسرفا في تلطفهما إلي ، فما كاد العشاء ينتهي حتى دخلنا حجرة الجلوس حيث كان جراسيان قد أركب النار في الموقد أثناء تناولنا الطعام ، وكان يضيء الحجرة مصباح كبير موضوع على منضدة من الخشب المطعم . وكان المصباح يرسل نوره على طرف المنضدة فيضيء الأب والبارون في تناقلها النرد ، كما كان يضيء مائدة مستديرة جلست إليها النساء يلعبن البزيج (Basique) ..

— وقالت مدام دي سان أوربول : لا شك في أن السيد لاكاز ، وقد ألف هو باريس ، سيجد لهونا فاتراً ...
وكان السيد فلوش قد انتحى جانباً من الموقد وأخذ يغالب النوم في مقعد وثير ؛ أما كازمير فقد كان يطالع رحلة حول العالم ، معتمداً بمرفقيه إلى المنضدة واضعاً رأسه بين يديه بينما كانت شفتيه المتدلّية فيها اللعاب . ورأيت من اللياقة وحسن التصرف أن أبدي شيئاً من الإهتمام بلعب النساء . كان من الممكن أن يكتفي اللعب بثلاثة لاعبين ، شأنه في لعبة «الوست» (Whist) ، ولكن تمام لعبة البزنج أن يشترك فيها أربعة ؛ لذا قبلت مدام دي سان أوربول ، دون أدنى تردد ، أن أكون شريكها لما عرضت أن أشارك في اللعب .

وخسرت في الليالي الأولى ، وفرحت مدام فلوش لكسبها . وكانت بعد كل كسب تظفر به تضرب ذراعي ضرباً خفيفاً بيدها النحيلة التي كساها قفاز ينتهي عند منبت الأصابع ؛ وكان اللعب يتطلب قدراً غير هين من الإقدام والمهارة والتحايل . وكانت الآنسة أولامب تلعب في دقة وروية . أما النقط التي كان لا بد من الحصول عليها للكسب فكانت تحدد في بداية اللعب ؛ ثم ، حسبما كان لدى اللاعب من الورق ، كان ينادي ويعرض

ويزايد .. وقد كان هذا كله يخلق مجالاً للحيلة والخداع . وكانت مدام دي سان أوريول تقبل على المزايدة في همة وقحة تبعثان في عينيها بريقاً وفي وجنتيها حمرة وتجعلان ذقنها ترتجف ؛ فإن أنست بين يديها أوراقاً طيبة ركلتني برجلها من تحت المائدة .

وكانت الأنسة أولامب تبذل جهدها للصمود لها ولكنها كانت ترتد مغلوبة على أمرها حين كانت تصيح فجأة في صوتها الحاد :

— يا آنسة فردور ، أنت تكذبين !
وكانت مدام فلوش ، في نهاية الدورة الأولى من اللعب ، تخرج ساعتها ثم ، كأن الوقت قد أزف لنهوض كازمير ، كانت تناديه قائلة :

— هلمّ يا كازمير ، لقد أزف الوقت .
فكان الغلام ينهض ، وهو يغالب النوم في مشقة ، فيبسط يداً مسترخية لتحية الرجال ، ويقدم جبينه للنساء يلثمنه ثم يخرج وهو يجرّ أذياله ويحجل .

وكان لاعبا النرد ينتهيان من اللعب عادة حين كانت مدام دي سان أوريول تدعونا للشروع في الدورة الثانية ؛ فكان السيد فلوش ، في بعض الأحيان ، ينهض من مقعده ويحتل مكان سلفه

ثم يلعب هو والأب في صمت لا يسمع خلاله سوى صوت
دحرجة النرد في القرطاس أو على الطاولة . أما السيد دي سان
أوريول فكان يقبع في مقعده فيهش أو يتغنى في صوت خفيت ،
وأحيانا ما كان يضرب النار فجأة بالملقط ضربة طائشة تجعل
الجمر يتناثر بعيداً ، فكانت الأنسة أولامب تنطلق إلى البساط
لتلتقط الجمر أو لتخمد النار ، وتقوم لذلك برقص طريف كانت
مدام دي سان أوريول تسميه ، في تألق ، « رقص الشرر » .
وكان السيد فلوش ، في أكثر الأحيان ، يترك الأب والبارون يتابعان
لعبهما ولا يغادر مقعده . وكنت أستطيع ، وأنا في مكاني أن أراه
يحرك رأسه في الظلام رغم تكلفه النوم . وفي أول ليلة قضيتها ،
هب اللهب فجأة وأضاء وجهه فشاهدت يغالب نشيجه .

كان اللعب ينتهي في التاسعة والربع ، فكانت مدام فلوش
تطفئ المصباح ، وتوقد الأنسة فردور مشعلين تضعهما على
جانبي طاولة النرد ، بينما كانت مدام دي سان أوريول تذهب إلى
زوجها وتضرب كتفه بمروحتها ، وتوصي الأب قائلة :
— يا سيدي الأب ، لا تدعه يسهر طويلاً .

ورأيت أنه يليق بي أن أستجيب لدعوة النساء ، من أول
ليلة ، فانصرفت تاركاً الأب والبارون في تناقلهما النرد ، والسيد

فلوش في نجواه وتأمله ، ولقد كان آخرنا إنصرافاً . فلما أن وصلنا إلى الدهليز تناول كل مشكاة ؛ ثم أخذت النساء يمينني على غرار تحية الصباح ، وهكذا كنت أدخل حجرتي وما أن ألبث فيها قليلاً حتى أسمع الرجال يصعدون إلى حجراتهم ثم يسود السكون ؛ ولكنك ترى النور ينبعث من تحت بعض الأبواب ويظل منبعثاً زمناً ليس بالقليل ؛ وإذا ما اضطرتك حاجة إلى الخروج ، كان من المحتمل أن تلقى مدام فلوش أو الأنسة فردور ، في ملابس الليل ، تهجان في الدهليز وتقومان بآخر الترتيبات ، حتى إذا ما حسبت بعد ذلك أن كل ضوء قد خبا ، شاهدت — خلف كوة من الزجاج تستمد ضوءها من الدهليز ولكنها مغلقة دونه — مدام دي سان أوريول ، خلف هذه الكوة ، أشبه بخيال الظل ، ترفي وترتق .

وتقضي اليوم الثاني في الكارفورش ، على غرار اليوم الأول ،
متعاقب الساعات دون أي تغيير يُحسَّ ؛ على أن هذا الفضول
الذي كان يدفعني إلى معرفة مشاغل مضيبي كان قد تلاشى
تماماً . وتنفس الصبح عن سماء أرذت وتساقط منها طلٌ رفيع ؛
ولما كان التريض في هذه الحال متعذراً وكان حديث النساء يزداد
تفاهة ، رأيت أن أشغل ساعات يومي كلها تقريباً في العمل .
ولم يتيسر لي أن أبادل الأب إلا بعض الكلمات وكان ذلك بعد
الغداء إذ دعاني الى تدخين سيجارة على بعد خطوات من حجرة
الإستقبال ، في موضع أشبه بمخزن جوانبه من زجاج ، كان
يطلق عليه القوم في شيء من التعظيم : السقيفة . وكانوا
يستودعونهم مقاعد الحديقة وكراسيها في فصل الشتاء .

فلما أن عرضت لموضوع تعليم الصبي عرضاً داخله شيء من الحدة ، أجابني :

ولكن يا سيدي ، انني لم أصب إلى شيء خيراً من إرشاد الصبي بقليل ما عندي من علم ، وما عدلت عن ذلك إلا مكرهاً أسفاً . أكنت تقرّني ، وهو على ما هو عليه من خجل ، لو تراءى لي أن أعلمه الرقص على الحبل المشدود ؟ سرعان ما رأيتني مضطراً إلى الحد من طموحاتي ؛ ولئن كنت أشغله معي في دراسة ابن زهير فذلك أنني أخذت نفسي يبحث في فلسفة أرسطو ورأيت إشراكه معي في هذا البحث بدلاً من أن أتلو معه في غير جدوى كتاباً من كتب اللغة . هذا ولا فرق عندي بين هذا الموضوع وغيره فالمطلوب هو إشغال الصبي بضع ساعات كل يوم . أكان في وسعي أن أمنع نفسي عن بعض السخط لو أنه اضطررتني إلى ضياع هذه الساعات من وقتي دون أن يعود عليه ذلك بنفع ما ... والآن كفى كلاماً في هذا الصدد ، ألا ترى ؟ وألقى سيجارته ؛ وكان قد تركها تنطفئ . ونهض عائداً إلى حجرة الاستقبال .

كان الجو رديئاً عاقني عن الخروج مع كازمير ، فاضطرتت الى إرجاء مأزمعنا القيام به . على أنني لما رأيت كور الصبي وأساه حاولت أن أجد له وسيلة أخرى للهو ، وإذ عثرت

على رقعة للشطرنج عكفت على تعليمه لعبة الثعلب والدجاج ،
فهام بها حتى العشاء .

وبدأت الليلة كما بدأت سابقتها ، غير أنني لم أعد أصغي
أو أنظر إلى أحد وأخذ يثقل على صدري ضيق لا سبيل إلى
وصفه .

وهبت بعد العشاء توأ ربح عاصفة ، فتوقفت الأنسة فردور
عن اللعب وصعدت إلى الحجرة العليا لترى هل تدفق إليها
المطر . واضطربنا غيابها إلى اللعب دونها في الدورة الثانية فافتقر
اللعب إلى النشاط والحمية . وكان السيد فلوش ينعس على شدو
المطر المنهمر ، ويغوص في مقعده المنخفض إلى جانب الموقد ،
وإذا به يستغرق في نوم عميق بينما جلس البارون على مقعد قبالة
يشكو داء المفاصل ويتذمر . وعبثاً ما حاول الأب ، لما أن لم ير
أحداً سواه يناقله النرد ، أن يزين له اللعب قائلاً :
— لعل النرد أن يلهيك عن أملك .

فلما يئس منه انصرف مصطحباً كازمير ليقوده إلى

فراشه .

في ذاك المساء ، لما أن عدت إلى حجرتي ورأيتني
وحددي ، ناصبني هم تملك النفس حتى كاد يذهب بالفؤاد ؛
وما هي إلا آونة حتى تحول همي إلى جزع وهلع .

كانت سدل من الأمطار تفصلني عن العالم الحي وتردني
رهين كابوس مروع ، في منأى عن كل عاطفة بين قوم عبوس لا
يسعك أن تعدهم من البشر ، قد امتنعت وجوههم وجمد الدم
في عروقهم وكف القلب فيهم عن الخفقان . ففتحت حقيبتني
وتناولت دليل السكة الحديدية . إليّ بقطار ! أياً كانت الساعة !
ليلاً أم نهاراً .. فليلقني بعيداً عن هذا المكان ! إنني هنا أختنق !

لعلني لم أكن أقل عزماً على الرحيل لما أن استيقظت غداة
ذلك ، غير أنه بدا لي أنه لا يليق بي أن أولي الأدبار دون أن أجد
عذراً أبرر به بتر إقامتي . ألم أصرح لمضيفي دون تبصر مني
بنيّتي الإقامة في الكارفورش أسبوعاً على الأقل ! هلم ، سوف
تستدعيني إلى باريس أنباء سيئة ... ولحسن الاتفاق ، كنت قد
تركت عنواني في باريس وطلبت أن يحوّل إلى الكارفورش بريدي
كله . وفكرت . إنها لمعجزة حقاً إن لم يرد إلي اليوم خطاب
أستطيع أن أستغله في حذق ... وأرجأت أمني إلى حضور
الساعي ... وكان هذا يحضر بعد الظهر بقليل ، ساعة انتهائنا
من وجبة الغداء . وكنا لا ننهض عن المائدة قبل أن تأتي دلفتين
برزمة الخطابات الهزيلة . وكانت تقدمها إلى مدام فلوش فتقوم
هذه بتوزيعها على الحاضرين . وحدث لسوء الحظ أن دعي الأب

سانقال في ذاك اليوم إلى تناول الغداء عند عميد بلدة بون لينفيك ، فأقبل في الحادية عشرة يودع السيد فلوش ويودعني ، ولم أتنبه تَوّاً إلى أنه يسلبني الجواد والعربة .

وعلى ذلك قمت في أثناء الغداء ، بتمثيل الفصل الذي وطنت النفس على تمثيله فهمست وأنا أفض مظلوماً كانت مدام فلوش قد قدمته إلي .

— يا للضجر !

فلما لم يلتفت أحد من الحاضرين إلى تعجبي ، تخرجاً من سؤال يشتم منه الفضول عاودت قولي وأنا أبالغ في دهشتي متكلفاً . الكدر ، في حينه ظلت عيناى تطالعان رسالة لا خطر منها .

— يا للأسف !

فتجرات مدام فلوش آخر الأمر وسألتني في استحياء :

— أي نبأ سوء أزعجك يا سيدي ؟

— أوه ! لا شيء ذا بال ! غير أنني للأسف أراني مضطراً

إلى العودة إلى باريس فوراً . وهذا ما يكدرني .

وعمت الدهشة أطراف المائدة كلها وفاقت كل ما كنت أتوقع حتى لأحسست بالخبجل يتصاعد إلى وجنتي ، وأعربت

هذه الدهشة عن نفسها أول ما أعربت بوجوم القوم وصمتهم ،
ثم ألقى السيد فلوش في صوت يرجف .

— أحقاً هذا يا صاحبي ؟ ولكن عملك ؟ ولكن ...

غير أنه عجز عن إتمام عبارته ، ولم أجد ما أجيبه به بل
شعرت أن التأثير يكاد يملكني أنا أيضاً . وسددت بصري إلى
هامة كازمير فرأيتَه يقطع تفاحة إرباً وأنفه غارق في طبقه . أما
الآنسة فردور فقد كان وجهها من شدة الغضب يلهب .

وألقيت مدام فلوش في صوت ضعيف .

— أخشى أن نتطفل عليك إن سألناك أن تبقى !

فقالت مدام دي سان أوريول في جفاء :

— أبما تقدمه له الكارفورش من متعة ، نسأله أن يبقى !

وحاولت أن أعترض :

— ولكن يا سيدتي ، ليس من شيء ...

ولكنها دون أن تصغي إلي ، صاحت في أذن زوجها وقد

كان يجلس إلى جوارها :

— إن السيد لاكاز يريد أن يفارقنا الآن .

فقال الأصم وهو يبتسم لي :

— حسن ! حسن ! إنني مبتهج لذلك .

وقالت مدام فلوش للآنسة فردور :

— ما عسانا نفعل ... والفرس قد مضت بالأب ؟ .
فتراجعت قليلاً عن موقعي وقلت :
— حسبي أن أكون في باريس غداً أول النهار ... وقطار
الليل قد يفي بحاجتي .

فقلت مدام فلوش :
— ليذهب جراسيان توأ إلى بوليني ليسأهم أفي الإمكان
أن نستعير جوادهم . أخبرهم أن عليك أن تقل سيداً لا بد من
أن يلحق قطار الساعة ... والتفتت إلي سائلة :
— أيلأتمك قطار السابعة ؟ .

— آسف يا سيدتي لإزعاجك ...
وانتهى الغداء في صمت ، اقتادني السيد فلوش إلى
المكتبة . وما أن أصبحنا وحدنا في الممر المؤدي إليها حتى قال :
— ولكن يا سيدي العزيز ... يا صاحبي العزيز ...
لا زلت لا أستطيع أن أتصور ... ولكن لا يزال عليك أن تحيط
بطائفة ... أمن الممكن ذلك حقاً ؟ يا للعائق ! يا للعائق
المرعج ! لقد كنت أنتظر إتمامك بحثك الأول لأسلمك أوراقاً
أخرى أخرجتها لك أمس مساء فقط .

وأعترف لك أني كنت أعتمد على هذه الأوراق حتى
أستشير في نفسك إهتماماً جديداً وأستبقيك زمناً أطول . وعلى

ذلك ينبغي أن أطلعك عليها فوراً . تعال معي ، لا زال لديك
متسع إلى المساء ، وإنني لا أجرؤ على سؤالك أن تعود إلينا . ألا
ترى ؟ ..

ورأيتني خجلاً من تصرفي لما شاهدت كدر الشيخ .
وكنت قد أمضيت نهار أمس كله في عمل متصل ، وكذلك
صبيحة ذاك اليوم بحيث لم يكن يتبقى إلا إلقاء نظرة عاجلة على
الأوراق الأولى التي كان السيد فلوش قد عهد بها إليّ ؛ ولكن ما
أن صعدنا إلى مقصورته حتى أسرع إلى درج واستخرج من
باطنه ، في حركة خفيفة ، لفافة طويت في نسيج وشدت بخيط .
وكان تحت الخيط صحيفة أشبه بجدول كتبت فيه قائمة الأوراق
التي حوتها اللفافة ، ومصدرها وأصلها ، وقال :

دونك هذه اللفافة ؛ ليس ما بها بذى أهمية كله ، ولكنك
تستطيع في سرعة أن تستخرج ما يهّمك منها .
وإذ كان يفتح أدرجا أخرى ثم يغلقها متظاهراً
بالانهماك ، هبطتُ إلى المكتبة ومعى لفافة الأوراق ، ففضضتها
على المنضدة الكبرى .

ورأيت أن بعض الأوراق لها حقاً علاقة ببحثي ، غير أنها
كانت ضئيلة العدد ، قليلة الغناء ، أغلبها مكتوب بيد السيد

فلوش ونفسه يتعلق بحياة ماسيون ، فلم تكن من ثم لثمني كثيراً .

أحقاً كان فلوش المسكين يعتمد على هذا ليستبقيني ؟
نظرت إليه :

كان قد غاص في مقعده وأكب متأنياً ينظف ثقوب أداة صغيرة لسكب السندروسي . فلما أن انتهى من هذا العمل رفع هامته فإذا ببصرنا يتلاقى . وأشرق وجهه بابتسامة حباها اللطف كله ، فلم يسعني إلا أن أنهض وأمضي إليه أحادثه . واتكأت على جناحي مقعده ، قبالة جسمه الصغير ، وسألته :

— يا سيدي فلوش ، لم لا تحضر إلى باريس ؟ إنه ليسرنا حقاً أن نلتقاك فيها .

— إن الانتقال في سني مجهد يتطلب نفقات باهظة .

— ألا تأسف على باريس قليلاً ؟

فقال وهو يرفع يديه :

— حقاً كنت أنتظر أن يكون أسفي عليها أشد . قد تبدو

خلوة الريف ، في أيامها الأولى ، شديدة صارمة على من كان كلفاً بالحديث ، ولكنه لا يلبث أن يألفها .

— وإذن ، فأنت لم تحضر للإقامة في الكارفورش عن رغبة

أو هوى ؟ فانسل من مقعده ناهضاً ، ووضع يده في لطف على
كمي ، قائلاً :

— كان لي فيما مضى نفر من الزملاء في المعهد لا زلت
أحفظ لهم أحسن الود ، من بينهم أستاذك البير دينوس العزيز ،
وكنت في يوم ما على وشك أن أحتل مكاناً بينهم ...

وكان يبدو عليه أنه يبغى الاستطراد في الحديث ؛ ومع
ذلك كنت أخرج من سؤاله مخافة أن أصدمه ، فقلت :
— أكانت مدام فلوش مفتونة بالريف .. ؟

— لا — ومع ذلك ما حضرت إلى الريف إلا لأجلها .
أما هي فقد استدعاهما إليه حدث عائلي صغير .

وهبط إلى القاعة الكبرى فأبصر اللقافة التي كنت قد
أعدت ربطها ، فقال مكتئباً :

— آه ! هل انتهيت من فحصها ؟ ... عسى أن تكون

وجدت بعض المؤونة فيها . وما باليد حيلة ! إنني ألتقط أقل

الفتات ، وأفكر أحياناً أنني أضيع وقتي سدى في جمع القتاد ؛

ولكن لا بد من رجال مثلي يوفرون على من كان مثلك عناء هذه

الأعمال الصغيرة التي قد تنفعهم . وسوف أكون سعيداً يوم أقرأ

رسالتك فأرى أن عنائي لم يذهب هباءً وأنت قد أفدت قليلاً .

ودعانا الجرس لوجبة العصر .

كنت أردد في نفسي : كيف السبيل إلى معرفة هذا
«الحدث العائلي الصغير» الذي أقنع هذين الشيخين بالإقامة في
الريف ؟ أيعرف الأب هذا الحدث ؟

كان ينبغي علي بدلاً من معاداة الأب أن أسعى إلى
استئناسه . على أية حال فلا مرد لما حدث ؛ ومهما يكن الأمر
فالسيد فلوش رجل شهم ، ولسوف أحفظ له أطيب الذكرى ...
وأقبلنا على حجرة الطعام فإذا بمدام فلوش تتلقاني بقولها :
— إن كازمير لا يجرؤ على سؤالك أن تتريض معه قليلاً في
الحديقة ؛ أنا أعرف أنه يتوق إلى ذلك ، ولكن لعل الوقت لا
يتوفر لك ؟

وكان الصبي يغوص بوجهه في طاس فيه لبن ، فرفعه وبدأ
عليه الفرح ، فقلت :

— كنت على وشك أن أقترح عليه مرافقتي . لقد
تمكنت من إنجاز عملي ، ولسوف أكون بلا عمل إلى ساعة
الرحيل . ها هي ذي السماء قد كفت عن الهطل ...
واقتردت الصبي إلى الغيضة .

كان الصبي في طريقنا يمسك إحدى يدي ، فلما أن بلغنا
أول منعطف ضمها إلى وجهه الملتهب وضغط بها عليه طويلاً ثم
قال :

— لقد ذكرت لي أنك سوف تقيم بيننا ثمانية أيام ...
— يا بني المسكين ! ليس في وسعي أن أقيم مدة
أطول ...

— إنك سئمت الإقامة .
— لا ! ولكن لا بد من الرحيل .
— وإلى أين أنت راحل ؟
— إلى باريس لكن سوف أعود .
وما أن نطقت بهذه العبارة حتى نظر إليّ متردداً
وسألني :

— أحقاً هذا ؟ أو تعدني به ؟ .
كان سؤال الصبي ينم عن شيء من التصديق كثير ، فلم
يطاوعني قلبي على مناقضته وقلت :
أتود أن أكتب لك على ورقة تحتفظ بها ؟
فقال وهو يلثم يدي لثماً شديداً ويقفز فرحاً كمن به
مس :

— أي نعم ...
— أتدري ما قد يكون مستحجاً عمله الآن علينا ، بدلاً
من أن نذهب للصيد ، أن نجمع أزهاراً لعمتك ونحمل إليها باقتين
ونباغتها بهما في حجرتها .

وكنـت قد آليت ألا أغادر الكارفورش دون أن أزور حجرة
إحدى العجائز ؛ ولما أن كن يتنقلن في أطراف الدار دون أن
ينقطع لهن انتقال ، كنت معرضاً لأن تباغتني إحداهن لو قمت
بهذه الزيارة المتطفلة وحدي . لذا اعتمدت على الصبي لأجد علة
لوجودي ، ولعل دخولي في أثر الصبي إلى حجرة جدته أو خالة
أمه لم يكن أمراً طبيعياً ، ولكنه بفضل هذه الباقة من الأزهار
يتيسر لي أن أبرر إلى حد ما ، وجودي .

على أن جمع الأزهار في الكارفورش لم يكن أمراً ميسوراً كما
كنت أحسب ، فإن جراسيان كان يشرف على الحديقة
ويلاحظها في شدة وصرامة ؛ لم يكن يكتفي بإرشادك إلى الأزهار
القابلة للقطف بل كان يحرص أيضاً حرصاً شديداً على أن
يعلمك الحيلة والدقة في قطافها ولقد أوضح لي كازمير كل ذلك
ونحن في طريقنا إلى الحديقة .

واقـتادنا جراسيان إلى مجموعة عظيمة وافرة من زهر الداليا
كنت تستطيع لو فرتها أن تقطف منها باقات عدة دون أن يظهر
أن المجموعة قد مُسَّت .

— قصها من أعلى أفنانها يا سيد كازمير ، لكم ينبغي أن
أردد ذلك ؟ قصها من أعلى الأفنان .
فصحت به وقد ضبقت ذرعاً :

ليس هذا بذى خطر الآن وقد أوشك زمن الأزهار أن
ينتهي فأجاني وهو يهمهم :
— إن لهذا خطره في كل آن ... وليس من زمن يستباح
فيه العمل السيء .

إني أبغض المتزمتين الذين لا يحلو لهم الكلام إلا في
أسلوب الحكم والأمثال .

وتقدمني الصبي وهو يحمل باقة الأزهار ، فلما أن مررنا
بالدهليز وجدت إناء فاستوليت عليه ...

كان السكون الذي يسود حجرة العجوز أشبه بما تراه في
دور العبادة كانت مصاريع النافذة مغلقة وإلى جانب الفراش
مرقع من خشب الكابلي يكسوه نسيج من المخمل الأحمر ، وعلى
الجدار ، فوق المרקع ، صليب من العاج والأبنوس حجبه إلى
نصفه غصن رفيع من البقس علق بشريط وردي وثبت طرف منه
باحدى ذراعي الصليب . وكانت الساعة توحى بالصلاة والموقف
يدعو إلى التأمل والخشوع ، فرأيتني أنسى ما أتيت من أجله وما
اجتذبتني إلى هذا المكان من تطفل وفضول فتركت كازمير يرتب
الأزهار كما تراءى له ، ولم أعد أنظر إلى شيء في الحجرة . وإذا بي
أناجي النفس قائلاً : على هذا الفراش سوف تقضي مدام فلوش

العجوز نجها ، سوف تصعد روح هذه السيدة الكريمة إلى بارئها
وهي في منأى عن زوابع الحياة .. أيها الراكب الذي يسأل عن
عاصفة الريح ، أقبل على هذا الثغر الأمين !

كان كازمير قد ضاق ذرعاً وبأساً من ترتيب الأزهار لأن
فروع الداليا الثقيلة كانت كلما أقامها تميل بالاناء ، وفجأة
تدحرجت الأزهار كلها على الأرض فلما أن عيل صبره قال :
— ليتك تعاونني .

وبينما كنت أقوم بترتيب الأزهار مكانه ، جرى إلى طرف
الحجرة حيث وقف عند مستودع صغير فتحه ثم قال :

— سأكتب لك الورقة التي تتعهد فيها بالعودة إلى
الكارفورش فأجبتة في شيء من التكلف :

— نعم ، نعم ، عجل ، فقد غضب خالتك إن رأتك
تنقب في مستودعها .

— إن خالتي في المطبخ مشغولة ، ثم هي لا تزجرني
أبداً .

وتناول ورقة من أوراق الخطابات وعكف على الكتابة
متوخياً إجادة خطه ما تيسر له ثم قال :

— هلم وقع الآن .
فلما أن دنوت منه وقرأت ما كتب ، قلت ضاحكاً :

— ولكن كان يجب ألا توقع الورقة باسمك يا كازمير .
لا ريب في أن الغلام ، وهو يقصد إلى أن تكون صيغة
التعهد أشد حيكاً وإحكاماً ، وكان قد التبس عليه الأمر فظن أنه
هو الذي يتعهد فوق الورقة ؛ وإليك ما قرأت .
«إن السيد لاکاز يتعهد بالعودة في العام القادم إلى
الکارفورش»

کازمير دي سان أوربول .
فلما رأي أضحك ، وأصغى إلى ملاحظتي ، ظل برهة
مضطرباً حائراً ، فإنه لم يكتب ما كتب إلا منقاداً بدافع من
قلبه ! وظن أنني لا أعتبر هذا التعهد جدياً ؛ وتساءل ألهزأ به ؟
ورأيت الدمع يكاد يتفجر من مآقيه ، فقلت :
— دعني أجلس مكانك فأوقع باسمي .

فنهض من مكانه ، وما أن وقعت حتى قفز من شدة
الفرح . ولثم يدي مراراً ؛ فلما أن هممت بالإنصراف أمسكني
من رداي ومال نحو الخزانة قائلاً ، وهو يعالج لولباً فيها :
— سوف أريك شيئاً .

ثم بعد أن نقّب قليلاً في الدرج بين شرائط وإيصالات
اختلط بعضها ببعض أخرج إليّ صورة صغيرة الحجم حولها
إطار ، وقال :

— أنظر !

فدنوت من النافذة .

أية قصة هذه التي هام البطل فيها بالأميرة ما أن رأى صورتها ؟ ليس من شك في أن هذه الصورة إنما هي صورة هذه الأميرة . أنا لا أدرك شيئاً في فن التصوير ، واهتمامي به قليل ؛ على أنني أجزم أن خبيراً في هذا الفن يحكم على أن هذه الصورة لا تخلو من صنعة ، فإنك إن كنت لا تكاد ترى أثر الشخصية فيها ، لفرط ما أضفاه عليها المصور الفنان من ملاحظة وظرف . على أن هذه الملاحظة نفسها كانت من الصفاء بحيث كان يتعذر عليك أن تنساها . هذا ولم أكن لأهتم بعيوب التصوير أو محاسنه . وتأملت في المرأة المائلة أمام عيني ، ولم يكن يظهر إلا جانب من محياها ، فرأيت وجهاً قد حجب وحنثه خصلة ثقيلة سوداء تدلت على عين ناعسة الطرف حاملة متوجعة ، وشاهدت ثغراً منفرجاً ، كأنه يزفر ، وجيداً أدق من العود . لقد كانت هذه المرأة ذات حسن خالص وسحر فتنت به فغبت عن الوجود .

وعاد إليّ كازمير وكان قد بعد عني ليخلص إلى ترتيب الأزهار ، ومال إليّ قائلاً :

— هذه أُمِّي إنها جميلة ، ألا ترى ؟ .

وشعرت قبل الصبي بشيء من الحرج إذ تراءت لي أمه
على هذا الجمال الفائق ، وسألته :

— أين هي الآن ؟ .

— لا أدري .

— لِمَ لا تقيم معك ؟ .

— إنها تملّ الحياة هنا .

— ووالدك ؟

فأطرق لحظة مضطرباً ... ثم قال ، في شيء من

الاستحياء :

— لقد توفي .

كانت أسئلتني ولا ريب تثقل عليه ، ولكنني كنت مصراً
على أن أذهب في استقصائي إلى أبعد ما أستطيع ، فقلت :

— أو تحضر والدتك لتراك أحياناً ؟ .

فرفع رأسه بغتة وقال في تأكيد .

— نعم ، كثيراً ما تحضر .

ثم أضاف في صوت خافت :

— إنها تحضر فتتحدث إلى خالتي .

— أهى تتحدث إليك أيضاً ؟

— إليّ ! أنا لا أعرف كيف أحدثها ... هذا ، وهي
تحضر أثناء نومي .

— أثناء نومك ؟ . .

— نعم ، فإنها تحضر ليلاً ...

ثم انقاد إلى أمنه الفطري (وكان قد تناول يدي لما أن
وضعت الصورة جانباً) فأضاف قائلاً في حنو وكأنه يُسرُّ إلي
بسرٍّ :

— لما حضرت آخر مرة أقبلت على سريرى وقبلتني ...

— أهي لا تقبلك عادة ؟

— بلى ، تقبلاً شديداً .

— فم قولك إذن « آخر مرة » ؟ .

— ذلك أنها كانت تبكي .

— أكانت خالتك ترافقها ؟

— لا . دخلت وحدها في سواد الليل . وكانت تحسبني

نائماً . وهل أيقظتك ؟ .

— لم أكن نائماً بل كنت في انتظارها .

— اذن كنت تعلم بحضورها ؟ .

فأطرق مرة أخرى ، وألححت في سؤالى :

كيف علمت بحضورها ؟ كيف تيسر لك أن تراها في
سواد الليل تبكي ؟ .

— فأجابني : إني لمست وجهها .

ألم تسألها أن تبقى ؟ .

— بلى . وكانت تميل على فراشي وكنت أقبض على
شعرها .

وما كان قولها لك ؟ .

ضحكت وقالت إني سأحلّ شعرها ؛ وأنه كان لا بد لها
من الرحيل .

— إنها لا تحبك إذن ؟ .

فتنحى عني فجأة وقد التهب وجهه وصاح في صوت
صدر من كوامن القلب حتى ألحجت من سؤالي :
— بلى إنها تحبني حباً فائقاً .

ودوى صوت مدام فلوش في أسفل السلم :

— كازمير ! كازمير ! إذهب إلى السيد لاكاز وبلغه ان
الوقت حان ليتأهب للرحيل ، فإن العربة ستحضر بعد نصف
ساعة .

فانطلقت كما ينطلق السهم وهبطت السلم ولحقت
بالعجوز في الدهليز وسألتها :

— مدام فلوش ! أَمِنْ الميسور أن أُكلف أحداً بريقة ؟
لقد وجدتُ سبيلاً للبقاء بينكم بضعة أيام آخر .

فتناولت يدي بين يديها وصاحت :

— آه أحقاً هذا يا سيدي العزيز ... ؟ .

ولما كان التأثير قد بلغ بها مبلغاً لم يسمح لها بأن تقول شيئاً آخر أخذت تردد :

— أحقاً هذا ... ؟ .

ثم جرت إلى نافذة فلوش ونادته :

— يا صاحبي ! يا صاحبي (هكذا كانت تدعوه) إن السيد لاكار يرغب في البقاء .

كان صوتها الضعيف في جلجلته يحكي صوت جرس تصدعت أطرافه ومع ذلك فإنه بلغ مسامع صاحبها إذ رأيت النافذة تفتح وأطل منها السيد فلوش ، وما أن أدرك ما ذكرت حتى صاح :

— إنني قادم ! إنني قادم !

وانضم إليه كازمير . ولبثت ساعة أواجه ؛ قسراً ، تهاني القوم جميعاً كأنني فرد من أفراد الأسرة .

وقالت مدام فلوش :

— أخشى أن أكون قد تطفلت عليك أثناء الغداء وأنا ألح

عليك في البقاء . أفي وسعي أن أطمئن إلى أنه لن يصيب
أعمالك في باريس ضرر ما لو بقيت بيننا ؟ .
— هذا ما أرجوه يا سيدتي العزيزة وهأنذا أبعث إلى
صديق طالباً منه العناية بأعمالي .

وكانت مدام دي سان أوريول قد حضرت في هذه الأثناء
وأخذت تروح بمروحتها وتدور في الحجرة صائحة في صوت بالغ
الحدة : يا له من ظريف ! يا له من ظريف ! ؛ ثم ولت وساد
الهدوء .

عاد الأب من بلدة بون ليفيك قبل العشاء بقليل ، ولما
كان يجهل مشروع رحيلي لم يدهش لبقائي ؛ وخاطبني في
لطف :

— يا سيد لا كاز لقد أحضرت معي من بون ليفيك
بعض الجرائد . أنا لا أميل إلى مهاترات الصحف ، غير أنني
فكرت في أنك قد تكون هنا محروماً من الأخبار بعض الحرمان ؛
لعل في هذه الجرائد ما يهمك .

وأخذ يبحث في باطن ثوبه ، ثم قال :
— لربما وضعها جراسيان مع الحقيبة في حجري : تمهل
قليلاً حتى آتيك بها .

— لا تفعل يا سيدي فسأصعد بنفسي لاستحضارها .
ورافقته إلى حجرتة ، فدعاني إلى الدخول . وبينما كان
ينظف ثيابه بفرشاة استعداداً للعشاء تبادلنا الحديث قليلاً ، ثم
سأله :

— أكنت تعرف أسرة دي سان أوربول قبل مجيئك إلى
الكارفورش ؟

— فأجابني : لا .

— قلت : والسيد فلوش ؟

— قال : لقد أنصرفت فجأة عن التبشير إلى التعليم ،
كان بين رئيسي وبين السيد فلوش صلات وعلائق فعينني رئيسي
لهذه الأعمال التي أقوم بها الآن لا ! ، لم أكن أعرف أحداً قبل
مجيئي ، لا تلميذي ولا والديه .

— بحيث كنت تجهل تلك الحوادث التي اضطرت السيد
فلوش إلى مغادرة باريس فجأة من خمسة عشر عاماً حتى كان
على وشك أن يعين في المعهد .

— فقال متمتماً : لعل ذلك يرجع إلى تقلبات الدهر .

— كيف ذلك ! أيعيش السيد فلوش وزوجه هنا من مآثر

آل سان أوربول ؟

— فقال ، وقد ضاق بما أقول : لا ، لا ، لقد أضاع آل سان أوريول أغلب ثروتهم ؛ ولكن الكارفورش ملك لهم . أما فلوش وزوجه فهما في بحبوحة من العيش ؛ ولئن كانا يعيشان في قصر سان أوريول فذلك لإعانتهم فإنهما ينفقان على الدار وحاجات المعيشة ، وهما بهذه الوسيلة يسمحان لآل سان أوريول بالاحتفاظ بالكارفورش . ولسوف يؤول هذا القصر فيما بعد إلى كازمير ، وهذا هو كل ما يستطيع الصبي أن يرتجي من بعدهم ...

— أو ليست الكنة ميسرة الحال ؟ .

— أية كنة ؟ أتعني والدة كازمير ؟ إنها بنت سان أوريول نفسه .

— ولكن لم يدعى كازمير إذن باسم سان أوريول ؟ .

فأجابني ساخراً : حقاً ؟ لا بد إذن أن نقدر أن الآنسة دي سان أوريول قد تزوجت من أحد أبناء عمها يدعى بنفس هذا الاسم .

فأجبتة وقد أدركت ما يعني رغم تردددي في استخلاص ما يمكن استخلاصه :
— حسناً .

وكان قد انتهى من تنظيف ثيابه ، فوضع قدمه على حافة
النافذة وأخذ يضرب حذاءه بمنديله ليزيل عنه الغبار ؛ وسألته :
— أوتعرف الآنسة دي سان أوربول ؟ .
— لقد رأيته مرتين أو ثلاثاً ، غير أنها لا تمر من هنا إلا
مروراً عابراً .

— وأين تقيم ؟ .
فانتصب واقفاً ، وألقى منديله المغبر إلى جانب ، ثم
قال :

— أهذا استجواب ؟ .
وتوجه نحو مصب المياه ، ثم قال :
— سيدعونا الجرس للعشاء بعد قليل ، ولن أكون مستعداً
له !

وفهمت أنه يدعوني للإنصراف ، ولم يكن من شك
عندي في أن شفتيه المضمومتين تكتمان الخبر الكثير ولكنه لن
يسمح بأن يفلت منهما شيء .

بعد ذلك بأيام أربعة كنت لا أزال في الكارفورش وقد
قلت هواجسي عما كانت في يومي الثالث ولكني كنت متعباً
مكدوداً . لم أظفر بجديد ، فلا الحوادث اليومية الرتيبة أتتني بنجر
يفتح لي آفاقاً ، ولا الكلام المتداول بين مضيبي مدني بقبس
يهديني . وبدأت أحس أن فضولي أخذ يحتضر لقلة ما يأتيه من
غذاء . ففكرت : علي أن أعدل عن فكرة كشف جديد ،
ولأخذن العدة إذن للرحيل فإن كل ما يحوطني يتواطأ ويحجم عن
الإدلاء بما يعلم . كان الأب يتكلف البكم منذ أن أطلعتته على
اهتمامي بما يهتم . أما نازمير فما زاد اطمئناناً إلي إلا زدت تخرجاً
من سؤاله ؛ هذا إلى أنني كنت أعرف الآن أغلب ما يستطيع
الإفشاء به ، وهو لا يزيد عما أفضى به أن أراني صورة أمه .
بلى ، لقد أفضى الصبي باسم أمه في براءة وأمن . وليس

من شك في أن هيامي بهذه الصورة التي ربما صنعت من خمسة عشر عاماً ، كان أمراً جنونياً ؛ ولو حدث أن إيزابيل دي سان أوريول (وهذا اسمها) أقدمت على الظهور ، أثناء إقامتي في الكارفورش كعادتها في ظهورها العابر لما استطعت ولا تجاسرت على التعرض لها .

ومهما يكن الأمر ، لقد رأيتني أشغل بها ولا أحس السأم ؛ ومرت هذه الأيام مرور الجنح سريعة خاطفة فانقضى الأسبوع دون أن أتنبه لانقضائه . ولم يكن من المحتمل أن أطيل مدة إقامتي في الكارفورش بعد ذلك أكثر مما أطلت ، فلم يكن عملي ليقدم لي أسباباً تبرر تأخير رحيلي ولكنني في ذاك الصباح ، وقد كان آخر صباح أقضيه في الكارفورش ، رأيتني أضرب متجولاً في أنحاء الغيضة . وقد أبان الخريف عن سعة أرجائها وزاد في دويّ صداها . وكنت أنادي في صوت يضطرب بين الهوس والوحي إيزابيل ثم أخذ الصوت يعلو شيئاً فشيئاً ؛ وإذا بهذا الاسم ، الذي أخذت منه أذني أول ما سمعته ، يكتسي حلاوة وظرفاً وكأنما امتزج به سحر خفي . وأخذت أردد : إيزابيل دي سان أوريول ! إيزابيل ! ..

وتراءى لي ثوبها الأبيض لدى كل منعطف يخفق ويتوارى . وكنت ما وقع بصري على بصيص تخلل أوراق الشجر ، تلك

الأوراق التي لا تثبت على حال ، إلا ذكرت نور عينها وتمثلت
ابتسامتها الحزينة . ولما كنت لا أزال أجهل الهوى توهمتني محباً ،
فأصغيت راضياً مغتبطاً إلى داعي الحب وأسلمت له قيادي .
ما أجمل الغيضة ! كانت والخريف فيها يحتضر تنهياً لجلال
الحزن وتعد للحداد عدتها . واستنشقت في نشوة أريج الأشنة في
امتزاجها بالأوراق البالية . وتجردت أشجار الكستنا الصهباء من
نصف ما أكرست من أوراق ، ومالت بأذرعها خاشعة إلى
الأرض . وتلأل القطر على ندى خد العوسج فصبغه بحمرة
أرجوانية عارضت خضرة الكلا المجاور ، فبدا في خضرته أبهى
وأنضر .

على خضراء الحديقة كنت تستطيع أن تتبين بعض أزهار
«الكولشيك» ، ولكنك إن نظرت إلى أسفل ومددت بصرك في
الوادي الصغير شاهدت خلف الحجر ، حيث كنت قد اعتدت
الجلوس لما كان المطر يكف عن الهطل ، بساطاً وردياً نسجته
هذه الأزهار على المرج . واخترت لجلوسي نفس الحجر الذي
جلست عليه أول يوم خرجت فيه مع كازمير . لعل الأنسة دي
سان أوريول كانت فيما مضى تجلس عليه وتطلق لأحلامها
العنان .. فتخيلتني إلى جوارها . أجلس ...

وكان كازمير . غالباً ما يرافقني في تجوالي ، غير أنني كنت أفضل السير وحدي ؛ وكان المطر يكاد كل يوم يياغتني أثناء سيرتي فكنت أعود إلى المطبخ مبلاً فأصطلي بناره وأجفف بللي . لم يكن لا جراسيان ولا الطاهية يميلان إلي ، ولم أتمكن على تلطفي المستديم إليهما أن أحظى منهما بكلمة . وكذلك لم أستطع أن أستأنس الكلب «ترنو» رغم مداراتي إياه ورغم ما كنت ألقى إليه من حلوى . كان يقضي أكثر ساعات النهار قابعاً في وسط الموقد ، فإذا ما دنوت منه زجر . أما كازمير ، وقد كنت ألقاه في أغلب الأحيان جالساً على شفيوة الموقد منكباً على تنظيف الخضر أو عاكفاً على القراءة ، فكان حين يرى ذلك يضرب الكلب بكفه ضرباً خفيفاً لاغتمامه من قلة ترحيب الكلب بي . وكنت أتناول الكتاب من يد الصبي وأتابع القراءة وأنا أرفع صوتي فكان يعتمد علي ويصيح بسمعه كله إلي .

على أن المطر في ذاك الصباح كان قد باغتني وهطل دفعة في شدة بالغة بحيث لم يسعني أن أفكر في العودة إلى القصر . فعدوت لأحتمي بأقرب مأوى ، فإذا به هذا المنزل المهجور الذي رأيته في طرف الغيضة على مقربة من الباب الحديدي وكان في ذلك الحين متهدماً كله ما عدا قاعة واسعة من قاعاته الأولى

كانت لا تزال محتفظة كأنها بأناقها ردهة استقبال في ثوى أو محلة
للصفا ؛ ولكن أخشاب جدرانها كانت متآكلة تتداعى لأقل
رج .

فلما دخلت إليها ، دافعاً أمامي بابها الذي لم يحكم إغلاقه ، حلق
فوق رأسي بعض الخفاش ثم انطلق الخفاش إلى الخارج من خلال
نافذة تعرت من زجاجها . وكنت أحسب المطر لا يدوم ، ولكنني
وأنا أعلل النفس بالصبر رأيت السماء قد أطبقت وضرب حولي
حصار لا أدري متى ينتهي أمده ! كانت الساعة العاشرة
والنصف ، ففكرت : لأنتظرن حتى أسمع أول جرس يؤذن
بالغداء فليس من شك في أنه يسمع من هذا المكان . وكان معي
ما يسمح بالكتابة ، ولما أن كان بريدي معطلاً ، رأيت أن أبرهن
لنفسي أن إشغال ساعة من الزمن لا يقل سهولة عن إشغال يوم ؛
ولكن فكري المضطرب كان لا يفتأ يعدل بي إلى الحب ويسرفني
إلى أشجانه . لو علمت أنها قد تعود يوماً إلى هذا المكان
لأحرقت الجدران بحرّ نجواي .. وبدأ يتسرب إلي ضجر أليم ،
محمل بالعبوات . ووقعت إلى جانب من الحجرة واجماً مكروباً لا
أجد مقعداً أجلس عليه ، وإذا بي في حرقه القلب أنتحب
كطفل ضلّ السبيل .

إن لفظ الضجر لا يعبر إلا تعبيراً هزلياً عن هذا الغصص
الذي طالما أخذ بأنفاسي وملك حواسي ، غصص يلم بك
فجأة ، ولا يظهر إلا ساعة أن تشعر بسمو اللحظة التي تنعم
بها . كان كل شيء من حولك يضحك طرباً وكنت لكل شيء
تضحك طرباً ؛ فإذا بأبحرة تتصاعد من سويداء النفس وتقف
فاصلة بين رغبتك والحياة ، ثم إذا بهذه الأبحرة تؤلف حائلاً أدكن
يفصلك عن بقية العالم ويمنع عنك حره ووجهه وألمه وانسجامه ،
فلا يأتبك هذا كله إلا ترجيعاً معنوياً لا يحرك من نفسك شعوراً
ما ، فأنت ترى ولا تتأثر ، وتشاهد ولا يقع من قلبك ما
تشاهد . وقد يؤدي بك مجهودك اليائس ، الذي تبذله في سبيل
اقتحام الستار الحاجز بينك وبين النفس إلى اقتراف أعظم الجرائم
والآثام بل وإلى الانتحار والجنون ..

هذا ما كنت أقلب الفكر فيه وأنا أصبح السمع إلى هطل
المطر وكنت أمسك بيدي مقشطي الذي فتحته لبري القلم ،
ولكن الورقة التي نزعته من مذكرتي ظلت بيضاء ، ورأيتني
أحاول بحد مقشطي نقش اسمها على الجدار الملاصق . لم أكن
مدفوعاً إلى ذلك بدافع من قلبي ولكن لأنني أعلم أن كل عاشق
ولهان يفعل ذلك . وكان الخشب البالي يفري ويتداعى لكل

ضغط ، وكل حرف أنقشه يتحول إلى ثقب . وكيفا أشغل فراغاً لا أدري بم أشغله ، شرعت دون تعمد في تجريح الخشب بلا تبصر ، تدفعني إلى ذلك حاجة بلهاء إلى الهدم . وكان مربع الجدار الخشبي الذي أجرحه يقوم تحت النافذة رأساً ، وكان إطاره مفككاً في طرفه الأعلى بحيث يتيسر تحريك المربع كله من أسفل إلى أعلى بين فرضات الجدار الجانبية . وهذا ما تبينته لما أن رفع سلاحي ذلك المربع فجأة ، وهو يجهد فيما كان يجهد .

وما هي إلا لحظات قلائل حتى فري المربع كله ، وإذا بمظروف يهوي إلى الأرض مع فري الخشب . وكان المظروف ملوثاً أخم قد تلون بلون الجدار حتى لم يسترع نظري أول ما وقع عليه كأن وجوده بهذا المكان أمر طبيعي . ولشدة ما كنت عليه من جمود الفكر لم أبهت لرؤيته ، بل ولم أحاول فضّه تَوّاً . وكان دميم المنظر قدراً ، فتناولته لإشغال فراغي ، ثم فضضته في سرعة ، وأخرجت منه ورقتين سودتا بخط عريض مختل طمس بعضه . وما هذا الخطاب ؟ نظرت إلى التوقيع فانبهرت عيناى :

إن إسم إيزابيل على أسفل الرسالة ! .

كانت تشغل فكري بحيث أني توهمت لحظة أنها كتبت إلي ما كتبت وهاك ما كتبت .

حبيبي ؛ إليك خطابي الأخير ، أسطر عاجلاً هذه
الكلمات ، فإنني أعلم ألي لن أستطيع أن أقول لك شيئاً هذا
المساء . لن تجد شفتاي إلى جوارك سوى القبلات ، فاسمع مني
إذن في سرعة بينا أستطيع الكلام إصغ إلي .

موعدنا الحادية عشرة متقدماً جداً ، والأفضل أن يكون في
منتصف الليل إنك لتعرف كم أتلظى صبراً إلى لقائك ، وك يمضي
الانتظار من نفسي ولكنني حتى أفيق إليك لا بد من أن يهجع
القوم جميعاً . نعم ، منتصف الليل لا قبله . تعال إلى باب
المطبخ للقائي (تبع سور الحديقة فهو في منأى عن النور ، ثم
عليك بالعوسج) ، انتظري هنالك ولا تنتظر قبالة الباب
الحديدي ، لا لأنني أخشى اجتياز الحديقة وحدي ولكن لأن
الحقيبة التي أحمل فيها بعض الملابس ستكون ثقيلة جداً ولن أقوى
على حملها طويلاً .

والأفضل أن تبقى العربة في طرف الزقاق لنستطيع أن
نستقلها في يسر ، فقد تنبح كلاب المزرعة وتلفت الأنظار ، لذا
وجب الحرص .

لا ، يا صاحبي ، إنك لتعرف أنه لم يكن هنا لك سبيل
إلى تلاقينا مرة أخرى كي نتفاهم على هذا كله شفاهاً . أنت

تعلم أنني أعيش هنا حبيسة ، وأن العجوزين لا يسمحان لي بالخروج كما لا يسمحان لك بالجمي . آه ! من أي سجن مظلم أفر ... نعم ، لن يفوتني أن أحمل معي حذاءين أبدهما بحذائي ساعة نستقل العربة فإن الكلاً في طرف الحديقة مبلل .

كيف بك تسألني أعازمة أنا متأهبة ؟ يا حبيبي إنني من أشهر أستعد وأتأهب ! ومن أعوام أحيا في انتظار هذه اللحظة ! تسألني ألن أندم على شيء ؟ — ألم تفهم إذن أن الحال قد بلغت بي بحيث أصبحت أجم كل من لهم بي صلة هذا أبغض كل من يربطني بهذا المكان ؟ أهى حقاً إيزا من تحدثك الآن ، إيزا الفتاة الوديعه الحية ؟ يا صاحبي ، يا رفيقي ، يا حبيبي ، ماذا صنعت بي ؟ .

إنني هنا أختنق ، وأفكر في هذه الآفاق التي تنفسح أمامي . إنني ظمأى ..

كدت أنسى أن أقول لك إنني لم أتمكن من انتزاع أحجار الياقوت الأزرق من علبتها لأن خالتي لم تعد تستودع المفاتيح غرفتها . ولقد استحال على كل مفتاح عاجلت به الدرج أن يفتحه . لا تنهني فلديّ سوار والدتي والسلسلة المرصعة ثم خاتمان — أظن أنهما قليلا القيمة لأنها لا تتحلى بهما — ولكنني

أعتقد أن السلسلة نفيسة حقاً . أما عن النقود .. فسأبدل
جهدي ولكن يحسن بك أن تحصل على القدر الذي يمكنك
الحصول عليه .
لك دعواتي كلها . إلى اللقاء .

صاحبتك

إيزا

« في ٢٢ من أكتوبر ، يوم مولدي الثاني والعشرين ، ليلة
فراري » .

أفكر في جزع ، لو أن عليّ أن أولف رواية من أطراف
هذه القصة فما أكبر العناء الذي قد ألقاه في دياجة هذه
الصفحات الأربع أو الخمس التي يقتضيها الإسهاب والتفصيل .
فلما استعدت قراءة الخطاب ، وقلبت الأمر على وجوهه ، وقعت
في حيرة شديدة .. كنت واجماً ساهماً كالوجوم الذي يعقب
صدمة عنيفة . فلما أن بلغ أذني بعد ذلك خلال ديب الدم
وهو يجري في عروقي ، صدى جرس يدق ثم يضاعف دقه ،
فكرت : هذا صدى الجرس الثاني الذي يؤذن بالغداء ؛ كيف لم
أسمع صوت الجرس الأول وأخرجت ساعتني فإذا بها الثانية عشرة ،
فعدوت في الحال إلى الخارج وأنا أضم إلى صدري هذا الخطاب
المتهب ، وانطلقت حاسر الرأس أتلقى المطر المنهمر .

كان فلوش وزوجه. قد أخذوا يجزعان لغياي ، فلما أقبلت عليهما لاهثاً صباحاً معاً .

— إنك مبلل الثياب تقطر ! .

وعارضا في أن يجلس أحد إلى الغداء حتى أغير ثيابي فلما أن عدت بعد حين أخذنا يسألاني ، في تودد المحبة ورعايته ، عما حدث لي . ورأيتني مضطراً إلى أن أروي له كيف أويت إلى المنزل لاجئاً من المطر وكيف لبثت أنتظر فيه عبء مهلة إلى أن يكف المطر . فشرع كلاهما يعتذر عن رداءة الجو وعن الحالة السيئة التي آلت إليها المسالك ، كما أخذوا يعتذران عن أن الجرس الثاني قد دق قبل مواعده وعن أن الجرس الأول لم يدق إلا دقاً ضعيفاً على غير المألوف ... ومضت الأنسة فردوا لتحضر لي شالاً فلما عادت بعد حين رجاني كلا الزوجين أن أتشح به لأن العرق كان لا يزال يتصبب مني وقد أتعرض للبرد وكان الأب يراقبني في صمت وقد أطبق شفثيه عابساً ، وكنت مبلبل الفكر بحيث أحسست ، وهو يرمقني بعينه المستقصية بأن الدم يصعد إلى وجنتي ، ورأيتني أضطرب كطفل أذنب وفكرت : ومع ذلك ينبغي أن أستأنسه ، فلو أردت أن أعرف شيئاً مما أريده فلن أعرفه إلا منه ؛ وهو وحده يستطيع أن يهديني إلى

مسالك ومنعطفات هذه القصة الغامضة التي أضحي الحب فيها رائدي فضلاً عن الفضول .

وبعد أن تناولنا القهوة قدمت إليه سيجارة اتخذها ذريعة للحديث ، وخرجنا للتدخين في السقيفة تخرجاً من إزعاج البارونة بدخاننا . وخاطبني على الأثر في لهجة ساخرة :

— حسبتك لا تقيم بيننا أكثر من ثمانية أيام ! .

— كانت هذه نيتي لولا تلطف مضيفي .

— أو قد انتهيت من أوراق السيد فلوش ؟ .

— نعم ، ولكنني وجدت ما يشغلني أكثر مما شغلني هذه الأوراق :

وانتظرت أن يسألني عما وجدت ، ولكنه ظل صامتاً . فلما عيل صبري عاودت القول :

— إنك تعرف بلا ريب خفايا هذا القصر كلها .

ففتح عينيه ما وسعه ، وقطب جبينه ، وتكلف السذاجة والبله . قلت :

— لِمَ لا تقيم في القصر أم تلميذك ، أو الأنسة دي سان أوربول لتعني بولدها الأشوه ووالديها الشيخين ؟ .

فألقي سيجارته ، ووسط راحتيه ووضعهما على جانبي وجهه على شكل قوسين ، وتكلف أشد الدهشة ، ثم قال :

— لعل لدينا من الأعمال ما يستبقها بعيداً .. يا له من سؤال فيه الإيعاز والتحايل .

— حسناً ، أتريد سؤالاً أدق ؟ إذن فاسمع : ماذا فعلت السيدة أو الآنسة دي سان أوربول ، أم تلميذك ، ليلة ٢٢ أكتوبر ، ليلة أن هم عشيقها باختطافها ؟ .. فوضع قبضتيه على جانبيه وقال :

— مرحى ! مرحى يا سيدي الروائي ! . وكنت قد انسقت عن زهو وضعف إلى الإفضاء له بطموحات نفسي وأنا أحذرك من الانسياق إلى التصريح بطموحات نفسك إلا لمن كنت واثقاً أشد الوثوق من وده ؛ فمذ عرف الأب طموحاتي هذه ، انقلب يمازحني ويتهمك مني في أسلوب كنت لا أطيقه — قال :

— ألا ترى أنك تتعجل في تحرياتك قليلاً ؟ أفى وسعي أن أسألك بدوري كيف انتهت إليك هذه البيانات الدقيقة ؟ . — ذلك أن الخطاب الذي كتبته إيزابيل دي سان أوربول إلى عشيقها في ذلك اليوم لم يتسلمه هو وإنما تسلمته أنا .

حقاً كان لا بد له من أن يعترف بخطري وبحسب حسابي ، وكان في تلك اللحظة قد أبصر لوثة صغيرة على كم

ثوبه ، شرع يحكها بطرف ظفره وبدأ لي أنه أخذ ينزل من عليائه .
إذ قال :

— إنني لأعجب ... ما أن يظن أحدكم أنه خلق لأن
يكون روائياً حتى يخول نفسه كل حق ؛ ولو أن شخصاً غيرك
عرض له ما عرض لك ما استباح لنفسه ، الاطلاع على خطاب لم
يوجه إليه إلا بعد تفكير طويل .

— بل أمني يا سيدي أنه لن يستبيح لنفسه أن يطلع عليه
بتاتاً .

وسددت إليه طرفي ، ولكنه ظل خافض البصر لا يفتأ
يحك كفه وقال :

— لا أحسب أن أحداً أعطاك إياه لتقرأه .

— إن هذا الخطاب وقع بين يدي مصادفة ، وكان مظهرافاً
بالياً رثاً ، ممزقاً لا أثر لأية كتابة عليه ، فلما أن فضضته وجدت
فيه خطاب الأنسة دي سان أوربول ؛ ولكن إلى من كان هذا
الخطاب موجهاً ؟ ... هلم ، عونك يا سيدي الأب ! من كان
من أربعة عشر عاماً عشيق الأنسة دي سان أوربول ؟ .

وكان الأب قد نهض وأخذ يسير طويلاً وعرضاً مقارباً
خطوه ، مطرقاً رأسه ، شابكاً يديه خلف ظهره . فلما أن عاد

ومر خلف مقعدي وقف وشعرت به بغتة وقد حط راحتيه على
كتفي ، وقال :

— أرني هذا الخطاب ! .

— أتفضي إلي بما عندك ؟ .

وشعرت براحتين عن ضيق وفراغ صبر تنقبضان وترجفان

وقال :

— لا تشترط ، أرني هذا الخطاب . أرجوك .

فقلت ، وأنا أحاول الإفلات من قبضته .

— دعني أذهب لإحضاره .

— إنه هنا في جيبيك .

وحدج موضع الخطاب كأن ثوبي كان يشف عما تحته ،

ففكرت : أترأه يهم بتفتيشي ؟ ...

وكنت أجلس بحيث كان يتعذر علي أن أدافع عن نفسي
لو هوجمت فما بالك لو استعدى علي عملاق على شاكلته أشد
مني وأقوى ؛ ثم كيف بي أحمله بعد ذلك على الكلام . والتفت
إليه فإذا بوجهه يكاد يقع على وجهي ، وشاهدته وجهاً منتفخ
الأوداج ارتسم على جبهته عرقان ضخمان وفي أسفل عينيه ورم
بغيز ، فتكلفت الضحك مخافة أن يفسد الأمر بيننا ، وقلت :

— حقاً يا سيدي الأب ، إنك مثلي مصاب بداء الفضول .

فخل عني ، ونهضت لفوري وأنا أتكلف الإنصراف .
— لو أنك لم تصطنع معي أساليب قطاع الطرق لأريتك الخطاب .

ثم أمسكت ذراعه وأضفت .
— ولكن تعال بنا إلى مقربة من قاعة الاستقبال حتى يتيسر لي أن أستنجد .

وكنت أحاول وسعي أن أحتفظ بلهجتي المداعبة ، ولكن قلبي كان يضطرب اضطراباً شديداً .

وأخرجت الخطاب من جيبي ثم قلت :
— دونك الكتاب ، إقرأه ، إقرأه أمامي ، فإنني شديد التوق إلى أن أرى بأي عين يطالع رجل الدين خطاب غرام .
غير أنه عاد فتملك نفسه ، ولم يدع أية سمة من الإنفعال ترتسم على وجهه سوى ذبذبة بدت على عضلة صغيرة في خده كان لا سبيل إلى كتبها وقرأ الخطاب وكأنه يحتسيه ثم شمه وكأنه يستنشقه وقطب جبينه تقطيباً شديداً حتى لتحسب أن عينيه كانتا غاضبتين على نهم أنفه ، ثم طوى الخطاب وأعادته إلي قائلاً في لهجة المتفهب .

— في ذلك اليوم عينه أي في ٢٢ من أكتوبر قتل
الفيكونت دي جنفر فيل ، في حادث وقع له وهو خارج
للصيد . فقلت :

—إني لأرتعش خوفاً مما تقول (وقد أخذ عقلي للحال يرسم
صورة مأساة مفرعة) فلتعرف إذن أنني وجدت هذا الخطاب وراء
أخشاب القاعة التي وضع فيها الخطاب ليصل إليه .

وأعلمني الأب بعد ذلك أن كبير أبناء آل جنفر فيل ،
وأملأهم تناخم أملاك سنان أوربول ، وجد في ذلك اليوم صريعاً
عند أحد الحواجز ، وفيما يظهر كان يهم باجتياز الحاجز حين
أتى بحركة غير موقعة انطلق على أثرها عيار من بندقيته فأرداه
قتيلاً ؛ ولكن خرطوش العيار لم يوجد في ماسورة البندقية . ولم
يستطع أحد أن يدلي بأي بيان آخر ، فالفتي خرج وحده ولم يره
أحد . ولم يعرف الحادث إلا غداة ذلك المساء حين رأى الناس
كلباً من كلاب الكارفورش يلحق في بركة من الدماء قريباً من
المنزل . واستطرد الأب قائلاً :

— لم أكن حينئذ قد حضرت إلى الكارفورش ، ولكن
البيانات التي جمعتها فيما بعد تطرح الشبهة كلها على جراسيا ،
فلا ريب في أنه اكتشف ما بين سيدته والفيكونت من علائق ،
ولعله علم أيضاً بعزمها على القرار (وهو عزم لم أعرفه حتى

اطلعت على هذا الخطاب . وجراسيان خادم بليد العقل ،
شكس ، لا يحجم عن ارتكاب أي عمل إن رأى فيه سبيلاً إلى
رد الشر عن سادته .

— وكيف لم يقبض عليه ؟ .

— لم يكن لأحد مصلحة في اتهامه ، وكان آل سان
أوريول وآل جنفر فيل يخشيان ما قد يثار حول هذا الحادث
المزعج من ضجة ، ولا سيما أن الآنسة دي سان أوريول وضعت
بعد بضعة أشهر من هذا الحادث طفلاً شقياً . وينسب الناس
عاهة كازمير إلى ما بذلته أمه من جهود للخلاص من حملها ،
ولكن الله يعلمنا أنه كثيراً ما يوقع عقابه بالأبناء . تعال معي إلى
النزل فإنني أريد أن أرى الموضع الذي عثرت فيه على الخطاب .
وكانت السماء قد صفت وانحسرت عنها غيومها ، فمضينا
معاً إلى النزل .

وانقضى ذهابنا دون شائبة . كان الأب قد تأبط ذراعي ،
فسرنا في خطوات متعادلة نتحدث من غير صدام ولكن الأمر
فسد بيننا في عودتنا وانتهى إلى الجفاء ذلك أن غريب ما وقع لنا
كان قد هز مشاعرنا وأثر في كل منا تأثيراً متبايناً ؛ أما أنا فكنت
قد نسيت أن الذي يحدثني رجل من رجال الدين لما رأيت ما
بيديه من ضروب التلطف ، وشرعت أكلمه كما لو كان انساناً

عادياً . وإليك ، فيما أظن ، كيف بدأ الجفاء بيننا . كنت أقول له .

— من يروي لنا ما فعلته الآنسة دي سان أوريول في تلك الليلة ؟ فلا ريب عندي في أن مصرع عشيقها الكونت لم يبلغها إلا غداة مقتله . هل انتظرت في الحديقة ؟ إلى متى انتظرت ؟ وماذا تبادر إلى ذهنها ... ماذا خالج قوادها لما رآته لا يأتي ؟ . وظل الأب صامتاً لا يتأثر لمناجاني ، فعدت إلى القول :
— تمثل هذه الفتاة الهيفاء وقلها بأشجار الهوى مثقل محزون ، وروحها من شدة الضجر تكاد تزهرق ، إيزابيل ... تلك الحبيبة الموهلة فهمس الأب :

— بل تلك الفاجرة ..
فقلت ، كأني لم أسمع ما همس به ، معتزماً مع ذلك أن أدفعه لو هاجمها مرة أخرى :
— فكر في هذا الأمل الذي كان يملأ قوادها ، ثم في هذا اليأس الذي ...

فقاطعني في جفاء :
— وما فائدة التفكير في هذا كله ؟ ليس لنا أن نعرف عن الحوادث أكثر من مفادها .

— ولكن مفادها يختلف بحسب كنه معرفتنا بملابساتها أو بزيادته .

— ماذا تعني ؟ .

أعني أنه في أغلب الأحيان قد تكون معرفتك بالحادث سطحية لا تطابق الواقع ، ولو أنك تقصيت ملابساته لاستخلصت شيئاً يختلف عما استخلصته ؛ وعلى ذلك يجمل بنا النظر والتحقيق قبل استخلاص النتيجة .

— يا صاحبي العزيز ، أعيذك من التحقيق والفضول فإن بريق التمرد والثورة تكمن فيهما ؛ عسى أن يهديك الرجل العظيم الذي اتخذته مثلاً إلى ...

— أتعني الرجل الذي أكتب عنه رسالتي ؟ .

— يا لك من جَدِلْ لحوح ! أبهذه الروح تقبل ...

— ولكن يا سيدي الأب أخبرني : أليس فضولي هذا هو نفس الفضول الذي حثك على مرافقتي الآن ، والذي دفعك من حين إلى ذلك الطلل البالي تسائله ؟ ثم أليس هو الذي ساقك شيئاً فشيئاً إلى الإلمام بأطراف هذه القصة التي رويتها لي ؟ .
وكان قد اخذ يخب ويوسع خطاه ، فقال في صوت قاطع وهو يضرب الأرض بعصاه في نفاذ صبر .

— أنا لا أقف عند الحوادث كما تقف متى عرفتُها ، ولا

أبحث مثلما تبحث عن تفسير لها ثم عن تفسير لتفسيرها . وهذه الحوادث المشؤومة التي نقلتها إليك خليقة بأن تعلمني ، لو كنت لا أزال في حاجة إلى العلم ، بأن معصية الجسد من أكبر المعاصي وإني لأرى في الحوادث نفسها القضاء الفصل على الطلاق وغيره من الحيل التي ابتدعها الإنسان ليتدارك نتائج ما اقترف واكتفي بهذا القول أليس كذلك ؟ ! .

— بل أرى أن هذا لا يكفيني . فالحدث نفسه لا يعني شيئاً عندي ما لم ألم بأسبابه ودوافعه . ويعنيني في هذا الحادث نفسه أن ألم بما نخفي من حياة أيزابيل دي سان أوريول وأن أعرف تلك المسالك الخفية العاطرة ...

حذار يا فتى فانك متيم بها ! .
— هذا ما كنت أتوقعه الآنني لا أكتفي بالمظهر ، الآنني لا أخدع بقول أو إشارة ... أوافق أنت من أنك لا تحكم على هذه المرأة حكماً يتأثر بالظنة ؟ .
— إنها فاجرة .

فألهب الغضب جبينني ، ولم أقدر على كظمه إلا في عناء عظيم . فقلت :

— يا سيدي الأب ، إن هذه الألفاظ التي ينطق بها

لسانك لتدهشني منك . وأظن أن السيد المسيح يعلمنا أن العفو
خير من العقاب .

— نعم ، ولكن بين العفو والرضا فرق يسير .

— لو أن المسيح قضى في أمرها ما حكم عليها بما

حكمت :

— إنك لا تدري عن هذا الأمر شيئاً ، ثم إن الله سبحانه
وتعالى ، المنزه عن الكبائر والصغائر ، في قدرته أن يكون أكثر
تسامحاً من أولئك الذين ... أعني أننا نحن العصاة ليس من شأننا
أن نلتمس أعذاراً للمعصية ، وليس علينا إلا أن ندير أنظارنا عنها
في استنكار .

— نعم ، بعد أن نستنشق غيرها كم استنشقت

الخطاب .

— إنك لوقح .

وانسل فجأة عن الطريق ومضى مسرعاً إلى مجازة ضيقة
وهو يرميني على غرار البار^(١) ، بعبارات جارحة لم أسمع منها إلا
هذه الكلمات : تعليم حديث ... سربوني .. زنديق ... ! .
فلما أن التقينا على العشاء رأيت لا يزال عابس الوجه ،

(١) البار^(١) جماعة من اليونان مهروا في رمي أعدائهم بالسهام وهم يولون الأدبار .

ولكن حين غادرنا المائدة أقبل مبتسماً ، وبسط يده إلي فتناولتها
وابتسمت .

وبدت لي هذه الليلة تفوق سابقاتها في سأمها الرتيب .
كان البارون يتدثر في هدوء إلى جانب النار ، وكان السيد فلوش
والأب يتناقلان النرد صامتين ؛ أما كازمير فقد كان واضعاً رأسه
بين يديه ، يمسح من حين لآخر كتابه الذي كان يسيل عليه
اللعاب . وأما أنا فلم أكن أعير لعبة البزيج إلا انتباهاً يسيراً
يسمح لشريكتي بألا تخسر خسارة بالغة مخزية . ولاحظت مدام
فلوش سأمي فانزعجت له وأخذت تبذل جهودها لتزيد اللعب
حمية وتنفخ فيه الحياة :

— هلمي يا أولامب ! إليك اللعب الآن . هل ألم بك

النوم ؟ .

لا ، لم يكن النوم ما ألم بقومي ، وإنما هو الموت الذي
كان يتسرب إليهم خفية فيجمد دماءهم ؛ بل لقد شعرت أنا
نفسي بأن صدري أخذ يضيق واستولت علي الهواجس وتملكني
الجزع . وفكرت في إيزابييل فإذا بي أهتف : أيها الربيع ! أيتها
الرياح السمحة الضاربة في أطناب الفضاء لن ينتهي عطر
نفحاتك ولن يصل عذب ألحانك أبداً إلى هذا المكان ! وأنت

يا إيزابيل ، من أي قبر أفلت ! وعلى أية حياة أقبلت ؟ إني
أتمثلك في ضوء ذلك المصباح الصافي وأنت تضعين جبينك
الشاحب المعنى على رقيق بنانك ، وقد تدلت خصلة سوداء على
معصمك تداعبه . ما لطرفك يمتد إلى مدار الفلك ! أي ضجر
شديد فل فيك الجسد والنفس ؟ ضجر تحكيه زفرات شاقيات لن
تبلغ أبداً مسامع قومك ... — وأفلت مني قسراً زفير شديد
أشبه بالتثاؤب أو النشيج ، فألقت مدام فلوش آخر ورقة في يدها
وصاحت :

— أرى أن السيد لاكار يرغب في النوم .

يا للمرأة المسكينة ! .

ألم بي في تلك الليلة حلم غفل أبله ، كانت بدايته تنمة
الحقيقة الواقعة .

رأيتني ، والليلة لم تنته بعد ، أجلس إلى جانب مضيفي
في قاعة الاستقبال ، وإذا بجماعة ، كان عددها يزداد دون
انقطاع ، تنضم إلى القوم — دون أن أرى مع ذلك أحداً يدخل
القاعة . وتعرفت على كازمير جالساً إلى المائدة أمام لعبة من
الألعاب ، وأمامه ثلاثة أو أربعة رجال عاكفين على اللعب . كان
القوم يتحدثون همساً بحيث تعذر علي أن أسمع شيئاً مما كانوا
يهمسون . ولكنني أدركت أن كل واحد منهم كان يسر إلى جاره .

بشيء يثير العجب فيعجب الجار له كانت الأبصار كلها
شاخصة إلى شيء معين قريب من كازمير ، وإذا بي أرى فجأة
إيزابيل دي سان أوربول جالسة إلى المائدة (كيف بي لم أرها من
قبل ؟) . كانت وحدها في وسط هذا الجمع الذي يرتدي ثياباً
قائمة ، ترتدي ثوباً أبيض . ورأيتها أول ما وقع بصري عليها فائقة
الظرف شبيهة بصورتها الصغيرة ، ولكن ما أن دقت فيها النظر
حتى راعني سكون محياها وجهود عينيها . فأدركت على الفور
السر الذي كان يتناقله القوم همساً : لم يكن ذلك الجسم جسم
إيزابيل الحقيقية ولكنه جسم دمية على صورتها كانت توضع
مكانها حين تغيبها .

وبدت لي هذه الدمية عندئذ أبشع ما تكون ، وشعرت
بضيق يتملكني لما أن تحققت من مظهر غبائها الدعي . كانت
ساكنة سكوناً تاماً لا حراك بها ، ولكني وأنا أحقق النظر فيها
رأيتها تميل رويداً رويداً إلى جانب حتى كادت أن تهوي إلى
الأرض ؛ وإذا بالآنسة أولامب تنطلق إلى طرف القاعة وتنحني
وترفع كساء المقعد الذي تجلس عليه الدمية ثم تدير لولباً خلفها
أحدث صريراً مزعجاً ؛ فإذا بالدمية تستقيم وتحرك يديها تحريكاً
آلياً مضحكاً . فلما أن حانت ساعة الانصراف نهض الجميع

وظلت إيزابيل الزيفاء جالسة مكانها . وكان كل فرد عند انصرافه يمضي إليها ويحني رأسه محيياً ثم ينصرف إلا البارون فإنه دنا منها غير حافل ، وقبض يديه على شعرها المستعار ، ثم وضع على هامتها قبلتين داويتين بينما كان يغرق في الضحك . فلما أن غادر القوم جميعاً قاعة الاستقبال ، وكنت أراهم جمعاً لا حصر له ، ولما أن عم الظلام ، شاهدت نعم ومن عجب أن أشاهد في الظلام — شاهدت الدمية وقد امتقع وجهها واضطرب جسمها وإذا بها تتحرك وتحيا . ورأيتها تحاول النهوض ، وتبيتها فإذا هي الأنسة دي سان أوريول نفسها . وأقبلت عليّ في سكون ثم على حين غرة شعرت بذراعيها الدافئتين تطوقان جسدي . واستيقظت على نضيج أنفاسها وهي تقول : « إن كنت لقومي غائبة فإنني لك حاضرة » .

لست بالمتيبب أو بالذي تسيطر عليه الأوهام ، على أنني ما أشعلت شمعتي بعد ذلك إلا لأدفع عن بصري وأبعد عن خاطري هذا الطيف الملم ولم أبلغ ما أردت إلا بعد عناء عظيم ومع ذلك ألفتني بالرغم مني أزهد سمعي لأقل صوت متسائلاً : لعلها هنا لم تمض ! وحاولت أن أصرف ذهني عنها بالقراءة ولكن الذهن كان لا ينصرف إلى شيء سواها ، وظل الفكر مشغولاً بها حين عاودني النوم إلى الصباح .

على هذه الصورة هبطت هذه الحماسة التي لازمت فضولي وتيمي . لم يكن لي من سبيل إلى إرجاء رحيلي بعد أن أنبأت مضيفي بعزمي على الرحيل مرة ثم مرة . كان ذلك اليوم إذن آخر يوم أقضيه في الكارفورش وفي ذاك اليوم ...

نحن على العشاء في انتظار البريد الذي كانت دلفين زوج جراسيان تتسلمه من الساعي ؛ فتأتي به عادة قبل أن تقدم الفاكهة بقليل وكانت مدام فلوش كما ذكرت من قبل تتناول فيها الخطابات ثم توزعها على الحاضرين ، ثم تقدم إلى السيد فلوش صحيفة جورنال دي ديبا فيحتجب خلفها إلى أن تغادر المائدة . في ذاك اليوم أفلت من ربطة الخطابات مظروف بنفسجي اللون علق بعصبة الجريدة ثم طار على المائدة واستقر على مقربة من طبق مدام فلوش . وفي لمح البصر تعرفت على ذلك الخط

العريض المختل الذي اضطرب له قلبي بالأمس اضطراباً شديداً .
وكذلك فيما يظهر ، تعرفت عليه مدام فلوش فحاولت في حركة
خاطفة أن تحجب المظروف بطبقها ، ولكن الطبق اصطدم بقدح
فيه نبيذ فتحطم القدح وسال النبيذ على المفروش وانتشر . وأثار
هذا الحادث لغطاً شديداً فانتهزت مدام فلوش ما عم من
اضطراب وأخفت المظروف في قفازها ، ثم قالت تعتذر في شيء
من سداجة الصبية :

لقد أردت أن أقتل عنكباً .

(وهي لا تميز بين الحشرات وتطلق لفظ العناكب على كل
حشرة تتسرب من سلة الفاكهة) .

ونفضت مدام دي سان أوريول من مكانها وألقت على
المائدة فوطتها دون طي ، ثم قالت أو صاحت في صوت حاد :
— وإني أراهن يا أختي أنك قد أخطأت الإصابة . تعالي
إلى قاعة الإستقبال . معذرة أيها السادة ، لقد عاد بطني يمغص
ويقطع .

وانتهى العشاء في صمت ، وكأن السيد فلوش لم ير
شيئاً ، وكأن السيد دي سان أوريول لم يفهم شيئاً . أما الآنسة
فردور والأب فقد ظل كلاهما ساهم العين لا يفارق بصره الطبق

الذي أمامه . ولو أن كازمير لم يأخذ في المخاط لرأيته يأخذ في النحيب .

وكان الجو يكاد يكون حاراً . وأحضرت القهوة إلى تلك الشرفة الصغيرة التي تتألف من بسطة الدرج المؤدي إلى القاعة : كنت وحدي أتناول القهوة مع الأب والآنسة فردور ، وسمعنا ضجة أصوات صادرة من القاعة التي احتبست فيها المرأتان ؛ ثم ساد السكون وفهمنا أنهما قد انصرفتا .

وأذكر ، لو صدقت الذاكرة ، مناوشة بين « شجرة الزان ذات ورق البقدونس » حدثت في ذلك الحين . وكانت الآنسة فردور والأب يعيشان في حرب لا تمل ولا تستقر . لم تكن الحرب بينهما جدية فلم يكن للأب مأرب سوى الدعابة والمزاح ؛ ولكن الآنسة لم تكن تغتاظ لشيء اغتياظها للهجة الأب الساخرة التي كان يتكلفها في جداله معها . كانت حيثئذ تكشف له عن موطن الطعان فلا يلبث الأب أن يرميها في مطعنها . وكان لا يكاد ينقضي يوم إلا وتحدث بينهما مناوشة من هذا النوع وكان الأب يزعم أن صاحبتة العانس في حاجة إلى هذه المناوشات لرعاية صحتها ، ويذهب بها كل مذهب فتتبعه طائفة منقادة ، وأكبر الظن أنه لم يكن يعتمد هذه المناوشات عن

شراسة خلق أو غلظة قلب غير أنه يبدي في تحديقها شيئاً من الخبث . وكانت هذه المناوشات تملأ شيئاً من وقتها وتدخل على حياتهما بعض الفكاهة والتسلية . وكان ما جرى أثناء تناولنا الفاكهة قد أثار أعصابنا ، وكنت أحاول أن أجد ما أصرف به أذهاننا عنه . وفيما كان الأب يصب القهوة عثرت يداي وأنا أضعها في جيبى بعشب من أوراق شجرة طريفة النوع كانت تنمو بجانب الباب الحديدي ، وكنت قد اقتطعت هذا العشب في الصباح لأسأل الأنسة عن اسم شجرتها ، لا عن هوى أو فضول وإنما لعلمي أنها تشعر بفرح وزهو كلما دعيت إلى إظهار علمها .

ذلك أنها كانت منصرفة إلى علم النبات ؛ تخرج في بعض الأيام لجمع الأعشاب حاملة على كتفها القويتين علبة خضراء تجعلها غريبة الشكل فتقضي الوقت الذي تسمح به أشغال المنزل عاكفة على مجموعة أعشابها تفحصها بالمجهر ...

وتناولت الأنسة أولامب العشب من يدي ، وقالت دون أدنى تردد :

— إن هذه الأعشاب من أعشاب شجرة الزان ذات أوراق البقدونس .

— فقلت : يا له من اسم طريف ! ومع ذلك أظن أنه
لا علاقة لهذه الأوراق المدبية ...

وكان الأب قد أخذ يبتسم في خبث ، فقال وكأنه يلقي ما
يلقي غير متعمد :

— هذا هو الاسم الذي يطلقونه في الكارفورش على
شجرة الفلاجوس برسيا فوليا *fagus per eigolla* .

فانتفضت الأنسة وقالت :
ما كنت أحسب أنك مطلع في علم النبات إلى هذا
الحد ! .

— لا ، ولكنني أحيط باللاتينية بعض الإحاطة .
ثم مال إلي وقال :

— لا ذنب لسيداتنا فيما يقعن فيه من لبس . إن لفظ
برسينكوس *pereceus* ، يا آنستي العزيزة ، معناه باللاتينية الخوخ
لا البقدونس ، وهذه الشجرة التي أشار السيد لاكاز إلى أوراقها
المدبية إنما هي شجرة الزان ذات ورق الخوخ .

وكان وجه الأنسة أولامب قد أحمر حتى صار قرمزيًا .
وكان ما تكلفه الأب من هدوء في خطابها قد عمل على إفساد
مزاجها ، ومع ذلك استطاعت أن تقول له ، دون أن تنظر إليه :

— إن علم النبات الصحيح لا يعني بالشاذ أو المسيخ .
وأفرغت قدحها دفعة ثم ولّت .

وكان الأب قد زم فاه زمّاً شديداً حتى صار كمؤخرة
الدجاجة ، وأخذ يطلق منه ضحكاً متقطعاً له ضجة عجيبة
كأنه خارج من مؤخرة الدجاجة أيضاً .

وبذلت جهداً كيلا أضحك ، ثم سأله :

— أو تكون غليظ القلب ! سيدي الأب ؟ .

— لا ، لا ... ولكن الآنسة ينقصها التدريب العقلي
وهي لذلك في حاجة إلى ما يلهب الدم في دمها . وهي بطبعها
ميالة إلى المشاكسة فإنها إن انقضى يومان أو ثلاثة دون أن أنازلها
دعنتي هي للنزال ، هذا وما عندنا في الكارفورش . من سبل
التسلية واللهو ضئيل محدود ...

وإذ ذاك شرع كلانا يفكر في هذا الخطاب ، الذي أحدث ما
أحدث أثناء تناولنا الغداء ، دون أن يتكلم أحدهما عنه . ثم سأله
بعد حين .

— أو قد تعرفت على ذلك الحظ ؟ .

— فقال : إن أمثال هذا الخطاب ترد إلى الكارفورش

مرتين في السنة وذلك إما قبل هذا الحين بقليل وإما بعده ، وهي
ترد عادة بعد موعد سداد إيجار المزرعة فتنبئ بحضورها .

فصحت : أهى حاضرة ؟ .

— قال : هوى ا هوى ا إنك لن تراها .

— ولم لن أستطيع أن أراها ؟ .

— لأنها تحضر في منتصف الليل ، ثم ترحل بعد ذلك تَوَّاً

ثم هي تهرب من الأنظار ، ثم ... حذار من جراسيا .

وكان يتفرس في وجهي ولكنني لبثت ثابت الجأش ، فعاد

يقول في لهجة محتدمة :

— أرى أنك لن تحفل بما ذكرت لك ، في مظهرك ؛

ولكنني حذرتك . اذهب وافعل ما بدا لك ، ولكن تعال غداً

وحدثني .

وانصرف دون أن أستطيع القول ؛ أكان يسعى إلى كبح

فضولي ، أم ، على النقيض ، كان يروق له أن يثير في الفضول .

وظل فكري إلى المساء لا شاغل له سوى انتظارها ، وإني

لأعدل عن وصف اضطرابي . أكان من الممكن حقاً أن أهوى

إيزابيل ؟ لا بلا ريب ؛ ولكنني ، وقد ذهبت في عبثي مذهباً هز

مشاعري كلها وبلغ مأخذ القلب ، كان طبيعياً أن أتوهم أنني

متيم ؟ كيف لي لا أتوهم ذلك ، وقد لا قيت في عبثي وفضولي
كل هذه العناصر التي تلازم الهوى ، أعني الشوق والحماسة
وتبليبل الفكر وقلة الصبر ؟ هذا ولم تكن لعبارات الأب ، التي فاه
بها وهو ينصرف ، من أثر في سوى أن تزيد من حماستي .
وفكرت : لا شيء يستطيع جراسيان أن يفعل بي ! لا شيء
يستطيع أن يقف بيني وبين هواي ، لا ، لا السيف ولا الحديد
ولا النار ! .

وكان من الجلي ، أن أمراً ما يدبر ويستعدون له في ذلك
المساء فإن أحداً لم يقترح أن يدار اللعب ، بل ما كاد العشاء
ينتهي حتى أخذت مدام دي سان أوربول تتوجع من مغص
بطنها ، ثم انصرفت دون أن تتكلف ما تتكلفه عادة ، في حين
مضت الأنسة فردور لتعد لها شرباً ساخناً . وبعد قليل التفتت
مدام فلوش إلى كازمير وأمرته بالذهاب إلى فراشه ، وما إن انصرفت
الصبي حتى خاطبتني قائلة :

— أرى السيد لاكاز يود لو ينصرف أيضاً ، إني أرى النوم
يثقل أجفانه .

فلما لم أسرع بتلبية دعوتها قالت :
— لا أحسب أن أحداً منا سيطيل سهرته الليلة ...

ونفضت الأنسة فردور لتشعل الشمعدان فاقتفيت أثرها
أنا والأب وفيما أنا منصرف رأيت مدام فلوش تميل على أذن
زوجها ، وكان إلى جانب النار في مقعده ينعس ، فنهض تَوَّأً
وجذب البارون من ذراعه فانقاد له كأنه يدري ما يبغيه . ولما
بلغنا منبسط درج الطابق الأول وقف كل منا يستعد للإنصراف
فابتسم الأب ابتسامة ساخرة وقال :

— طاب نومك ! .

وأغلقت باب حجرتي ثم لبثت أترقب ؛ لم تكن الساعة
دقت التاسعة فسمعت مدام فلوش تصعد ثم تلتها الأنسة
فردور . ودارت على منبسط الدرج مشادة حامية بين مدام فلوش
ومدام دي سان أوريول ، وكانت هذه قد خرجت من حجرتها ؛
ولم أتمكن من سماع ما دار بينهما ولكنني سمعت بعد قليل صوت
أبواب تغلق في عنف ثم ساد السكون .

فاستلقيت على فراشي أتدبر أمري . فكرت في هذه
الابتسامة الساخرة التي حباها الأب من حين وهو يودعني ،
ووددت لو أعلم أكان من جهته قد انصرف إلى النوم أم أنه ترك
الحبل على الغارب لفضوله الذي نفاه عن نفسه من حين . وكان
الأب يقيم في طرف القصر المقابل فلم يكن ثمة سبب معقول

يدعوني إلى الذهاب إليه . ومع ذلك فكرت : من منا يكون أشد حيرة وأكثر حزناً لو باغت أحداً صاحبه الآن في دهليز القصر ؟ .. وفيما أنا فيه من إعمال الفكر حدث لي حادث مخجل أستحي من ذكره . لقد غلب الكرى على أجفاني فنمت .

نعم ، نمت واستغرقت في نوم عميق فقد كنت من طول الانتظار متعباً متهيج الأعصاب ، فضلاً عن أني قضيت بالأمس ليلة مجهدة أجهدت فيها القلب والجسد بالسهاد .

وأيقظني زفير الشمعة وهي تشرف على الإنطفاء ، أو لعل ما أيقظني رجة خفيفة أحسست بها إحساساً غامضاً أثناء نومي . لا شك في أن أحداً مشى في الدهليز ، فاستويت في فراشي . وانطفأت شمعتي هذه اللحظة فلبثت حيناً في الظلام حيران لا أهندي . ولم يكن معي إلا بضعة عيدان من الثقاب أعددتها لأستنير بها ، فأشعلت عوداً منها لأتبين الوقت في ساعتني ، وكانت الساعة منتصف الثانية عشرة ! أرهفت أذني ... ولكن ما من صوت أتاني ، فاتجهت إلى الباب أتمسه وفتحته .

لا ، لم أكن مضطرب القلب ، بل كنت أشعر بأني خفيف الجسم نشط الحركة مطمئن النفس حديد الفؤاد مقدم .

ورأيت في ظرف الدهليز نافذة واسعة كان الضوء الذي ينصب منها يبلغني ، لا سويّاً كضوء الليالي الصافية وإنما خففاً مضطرباً ، حيناً يبدو وحيناً يغيب ، فقد كانت السماء تمطر والريح تسوق أمام القمر قطيعاً عظيماً من السحب . كنت قد خلعت نعلي وتقدمت خافت الخطو لم أكن في حاجة إلى أن أدقق النظر كيما أبلغ المكان الذي أعدته في الصباح مرصداً لاستكشافي وهذا المكان حجرة مهجورة تقع إلى جوار حجرة مدام فلوش حيث كانت المداولة تجري ، فيما يظهر . وكان السيد فلوش يقيم في هذه الحجرة من قبل ولكنه هجرها مفضلاً جوار كتبه . كنت قد رأيت الباب الذي يؤدي إليها قد مال قليلاً حين أغلقت مزلاجه لآمن المباغثة فتحققت من أنني أستطيع أن أطالع بعين من أعلى خلل الباب . وكان علي حتى أصل إلى ذلك الخلل أن أرتقي خزانة حديدية فما كان مني إلا أن دفعتها إلى جوار الباب .

وكنت أرى الآن بصيصاً يتسرب من هذا الخلل وينعكس على سقف الحجرة الأبيض فأتاح لي ضوءه أن أهتدي . ألفيت كل شيء كما أعدته في الصباح فارتقيت الخزانة ومددت بصري في الحجرة المجاورة ...

في هذه الحجرة رأيت إيزابيل دي سان أوربول .

كانت ماثلة على خطوات مني جالسة على كرسي حديث الطراز دميم المنظر منخفض لا ظهر له ؛ فأثار وجوده ، في هذه الحجرة ذات المتاع القديم ، دهشتي ولا سيما أنني لم أره حين دخلت إليها مع كازمير حاملاً الأزهار ورأيت مدام فلوش غائصة في مقعد وثير ، بالقرب منها منضدة عليها مصباح يلقي ضوءاً خافتاً عليها وعلى إيزابيل . ولما كانت هذه تدير إلي ظهرها ، منحنية إلى أمام مستلقية على حجر نخالتها ، لم أر وجهها أول ما أبصرتها ؛ ولكنها لم تلبث أن رفعتة . كنت أتوقع أن أرى وجهاً عصفت به أحداث الدهر ، لكنني مع ذلك لم أكد أتعرف على فتاة الصورة في هذا الوجه . لم تكن بلا ريب ثقل حسناً عما كانت عليه في صورتها ، ولكن هذا الحسن قد أصبح من نوع دنيوي أدنى إلى حسن البشر وإن ذلك الطهر الملائكي الذي كان يزين محياها الجميل قد غاص وحل محله لين ورخاوة ، وانطبع على طرفي شفيتها ثثن كأنها تتقزز لأمر تعافه نفسها في حين انها في صورتها مفترية الشجر . وكانت ترتدي معطفاً من معاطف السفر المصنوعة من المطاط ، من نوع دارج فيما يظهر . ولما كان المعطف مرفوعاً من جانب أتيح لي أن أرى من ثوبها البراق الأسود ، وقد تدلت عليه يد عارية هزيلة شاحبة بطوي بين بنائها منديلاً . وعلى رأسها كساء من الجوخ والريش المتألق ، وعلى

جانبي الكساء شريط من الحرير استرسلت خلفه خصلة حالكة السواد . كانت ، حين تخفض رأسها ، تعود فتحجب وجنتها فتحسبها وهي على هذه الحال في ثياب الحداد لولا شريط أخضر لامع يطوق جيدها . ولم تكن المرأتان تتبادلان حرفاً ، على أن إيزابيل كانت تمر يمينها على ذراع مدام فلوش ثم على يدها ، ثم ضمتها إليها وأغرقتها بالقبلات .

ورأيت رأسها يهتز فترنحت خصلات شعرها وتمايلت كالأمواج ، تارة ذات اليمين وتارة ذات اليسار ، وقالت كأنها تردد عبارة قالتها من قبل :

— كل وسيلة ؛ نعم ، حاولت كل وسيلة أقسم لك

أن ...

فقاطعتها العجوز ، وهي تضع يدها على جبينها ، قائلة :

— لا تقسمي بنيتي ، فإني أصدقك دون القسم .

وكانت كلا المرأتين تتكلمان في صوت خفيت كأنهما

تخشيان أن يسمعهما أحد ...

واستوت العجوز في مكانها ، وأزاحت ابنة أختها في

لطف ثم نهضت معتمدة على ذراعي مقعدها ، فنهضت الأنسة

أيضاً ؛ وبينما كانت العجوز تتجه نحو المستودع الذي أخرج منه

كازمير الصورة الصغيرة أول أمس ، خطت الأنسة في نفس

الإتجاه شطر مسند عليه مرآة كبيرة وقفت عندها . وبينما كانت العجوز تنقب في أحد الأدراج أبصرت الأنسة ، في المرأة ، شريطها الأخضر الذي يطوق جيدها ، فأسرعت بحله في خفة ، ثم لفته حول اصبعها ... وقبل أن تلتفت العجوز إليها كانت قد تكلفت الوضع الذي يوهم بإعمال الفكر والتأمل ، فإذا بها مسترخية اليدين مشبوبة الأصابع ساهمة العين أشبه بالحائرة ...

وحين همت مدام فلوش بالجلوس في مقعدها ، وقد أمسكت بيد حزمة مفاتيحها والأخرى بضع أوراق نقدية قليلة العدد أخرجتها من الدرج ، رأيت الباب الذي يواجهني يفتح على سعته ، وإذا بي لشدة دهشتي ، أكاد لا أملك نفسي عن الصياح : فقد وقفت البارونة في فرجة هذا الباب المفتوح ، مبهرجة الثياب ، حاسرة الجيد ، مخضبة الوجه ، على رأسها قبعة عظيمة الحجم أشبه بعمامة من الريش ، وفي يدها شمعدان ذو شعب ست أخذت تهزه هزاً شديداً . وكانت شموع الشمعدان المشتعلة كلها ترسل أضواء خفاقة على المرأتين بينما قطراتها تسيل على الأرض . ومضت العجوز إلى المسند ووضعت الشمعدان عليه فقد كان ظاهراً أن المجهود الذي بذلته أنك قواها ؛ ثم عادت إلى فرجة الباب واتخذت ذلك الوضع الذي رأيتها عليه .

وتقدمت مرة أخرى في خطى متزنة وفي مظهر رصين خطير ،
باسطة يداً محملة بخواتم بالغة الحجم حتى إذا بلغت وسط الغرفة
وقفت وأشارت إلى ابنتها وقالت في صوت حاد يكاد لحده أن
ينفذ إلى الجدران :

— إلى وراء أيتها البنت العاقة . لن أستلين لعبراتك ،
وشكاتك لن تصل إلى قلبي فإنك قد ضليت السبيل إليه إلى
الأبد .

ألقت العجوز في صول سوي حاد رتيب النغم ، ومع
ذلك شاهدت إيزابيل ترمي على قدميها ، وتمسك بثوبها وتشد
أطرافه فتكشفت قدما العجوز عن حذائين صغيرين من الحرير
الأيض الناصع ، وشرعت ابنتها تضرب بجبينها أرض الحجر ،
كانت في ذلك الموضع مكسوة ببساط . ولم تخفض مدام دي
سان أوربول آونة ما بصرها إليها ، وظلت ترسل إلى الأمام نظرات
حادة جافة أشبه بصوتها ، ثم استأنفت قائلة :

— حسبك أن أنزلت بأبويك البؤس والشقاء ؛ أو تريدان
أن تواصلين ...

وخانها صوتها ، فتلفتت إلى مدام فلوش ، وكانت قد
انكشفت في مقعدها ترجف ، وقالت لها :

— أما أنت يا أختاه ، لئن تغلب عليك الخور ... — ثم

استدركت : لمن تغلب عليك خورك الأثيم فنزلت على رجائها
وتوسلها ، ولو كان ذلك يمنحها قبلة أو أقل عطاء ، فوالله
لأنصرفن انصرافاً لا رجعة فيه ولأستودعن الله ما ملكت يداي ولن
ترين لي وجهاً ما حييت .

وخيل إليّ أني أشاهد تمثيلية في أحد المسارح ،
وتساءلت : لمن كانت تمثل هاتان المرأتان وكلتاها لا تدري أن
أحداً يشاهد تمثيلهما ؟ وبدت لي الأنسة مسرفة الحركة ، متكلفة
الوضع مزيفة ، لا تقل في زيفها وتكلفها وإسرافها عن أمها ...
وكنت أرى هذه الأم وجهاً لوجه بحيث كنت لا أشاهد إيزابيل إلا
ظهراً . وهي جاثية على ركبتها أشبه في جثوها بالراجية المتقرية ،
وفيما أنا فيه من نظر أبصرت قدميها ، فرأيت قدمين احتذيتا
حذاء من حرير أدكن علته طبقة من الوحل ، وشاهدت في أعلى
ساقها جوارب بيضاء ملوثة لونها بلا ريب كطرف ثوبها المبلل
بالوحول لما أن رفع .. فأحسست بفؤادي ينخلع ، يدوي فيه ما
تحكيه هذه الملابس التعسة من شقاء وبؤس ، دويّاً أليماً شديداً
غلب على صوت العجوز ... واختنق حلقي بالعبرات وآليت
لألاحقن إيزا في الحديقة حين تغادر الدار . وتقدمت العجوز
بضع خطوات نحو مقعد مدام فلوش وقالت :

— هلمي ! أعطني هذه الأوراق ؟ أوتظنين أنني لم أرك
وأنت تطوينها في قفازك ؟ أوتظنين أنني كفيفة البصر لا عقل
لي ؟ أعطني هذه النقود .

وما أن أختطفها حتى دنت من الشمعدان وتصنعت
إحراق الأوراق على لهب الشمع ، وقالت :
— اني لأؤثر أن أحرقها كلها على أن أعطيها فلساً واحداً .
(أمن موجب للقول بأنها لم تفعل من ذلك شيئاً ؟)
ودست الأوراق في جيبها ، ثم عادت إلى إلقائها وتمثيلها
قائلة :

— أيتها البنت الجحود ! أيتها البنت الكنود ! إن السبيل
الذي أودى بأسواري وعقداني لسوف تجعلين خواتمي تسلكه .
وفيما هي فيه من قول رأيها تهز يدها وتسقط من
أصابعها في حركة خفيفة ماهرة خاتمين أو ثلاثة تدحرجت على
البساط فإذا بإيزابيل ترتمي عليها كما يرتمي الكلب الجائع على
العظام ، واستأنفت العجوز خطابها قالت :

— والآن انصرفي . فلم يبق بيننا ما يقال ، إنني منك
براء ! .

وتوجهت إلى منضدة في الحجرة كانت عليها مطفاة

الشمعدان وشرعت تدور على الشموع تطفئها حتى أتت عليها جميعاً ثم انصرفت .

وبدت الحجرة الآن مظلمة ومع ذلك أبصرت إيزابيل تنهض من مقعدها وتمر بينانها على وجنتيها ، وتلقي خصيلات شعرها المتناثر إلى خلف وتصلح من وضع قبعتها . وانتفضت بجسمها فعاد المعطف إلى كتفها وكان قد زلق قليلاً وانحسر عنهما ، ثم أقبلت بعد ذلك على مدام فلوش تودعها . وبدأ لي أن المرأة المسكينة تحاول الكلام ولكن صوتها الضعيف لم يصل إلى سمعي . ومالت إيزابيل على يد العجوز المرتجفة فقبلتها ثم انصرفت دون أن تنبس بحرف . وما هي إلا لحظة حتى كنت في الدهليز منطلقاً في إثرها .

فلما بلغت الدرج وهمت بالنزول سمعت أصواتاً أوقفتني ، وتبينت في وضوح صوت الأنسة فردور ، فملت على درابزين الدرج فرأيتها لحقت بإيزابيل في المدخل ، وفي يدها مصباح صغير ، وسمعتها تقول :

— أوترحلين دون تقييله ؟ — فأدركت أنها تعني كازمير — ألا تريدان أن ترينه ؟ .

— لا يالولي ، انني مستعجلة . ولا ينبغي أن يعرف أنني حضرت .

وساد سكون تخللته حركات لم أفهم معناها ، ثم خفق
المصباح باعثاً على الجدار ظلالاً تتراقص وتتواثب . وتقدمت
الآنسة فردور خطوة وتقهقرت إيزابيل أخرى ، وإذا بي أسمع :
— بلى، بلى هو لك ذكرى مني . لقد احتفظت به زمناً
طويلاً ، والآن وقد تقدمت بي السن فإنني في غنى عنه .
فضمتها الآنسة بين ذراعيها ثم صاحت :
— يا لك من مسكينة ... إنك مبلة .
— إن معطفي وحده مبلى ... وليس هذا بذى خطر
دعيني أرحل الآن سريعاً .
— خذي معك المظلة لتقيك المطر .
— إن المطر قد انقطع .
— خذي المصباح .
— لا حاجة إليه ، إن العربة على مقربة ، الوداع .
— الوداع يا بنيتي المسكينة . في حفظ ...

وضاعت بقية العبارة وفنيت في النحيب . وظلت الآنسة
فردور حيناً مشرئبة بجسمها صوب الليل البهيم . وهب على حرم
النسلم من الخارج نفح بليل ، ثم سمعتها تدفع المزلج في الباب
الذي أوصدته ...

ولما كنت لا أستطيع المرور أمام الأنسة فردور دون أن
تراني وكان جراسيان يأخذ معه مفتاح المطبخ كل مساء ، رأيت
أن أمضي إلى طرف القصر فقد كان الخروج من أحد أبوابه
ميسوراً ، ولكنني كنت مضطراً لذلك أن أسلك طريقاً طويلاً لن
أقطعه إلا وتكون إيزابيل قد استقلت العربة . وفكرت : لو ناديتها
من نافذتي ؟ فعدوت إلى حجري عدواً . كان القمر قد عاد إلى
الاحتجاب ، فوقفت برهة أرقب الظلام وأرهف السمع لعلمي
أسمع خطاها ، ولكن عاصفاً من الريح هب ، وفيما أنا أبصر
جراسيان يدخل من باب مطبخه ، سمعت ، خلال حفيف
الأشجار وهمسها عربة إيزابيل تبتعد .

كانت أعمالي معطلة قد أجلت إنجازها تأجيلاً طويلاً ،
لهذا ما أن عدت إلى باريس حتى انهالت علي المشاغل من كل
صوب فانصرفت إليها انصرفاً شغل وقتي كله وطوّح بأفكاري .
وكنت قد عقدت العزم على العودة إلى الكارفورش في الصيف
التالي وذلك العزم يخفف من أسفي على إخفاقي في أن أدفع بهذه
المغامرة إلى أبعد مما دفعت . وكنت قد أوشكت أن أنسى المغامرة
حين ورد إلي ، في أواخر يناير من ذلك العام ، إعلام مزدوج
ينعي إلى السيد فلوش وزوجه ، وقد توفيا تباعاً أحدهما بعد الآخر
بقليل ، وصعدت روحهما الودیعة إلى بارئها في مدى بضعة أيام
وتعرفت على خط الأنسة فردور على مظروف الإعلام ، ولكنني
بعثت إلى كازمير بعبارات الأسف والود المألوفة ، فورد إلي بعد
أسبوعين هذا الكتاب .

عزيزي السيد جيرار .

(لم يسع الصبي قط أن يدعوني إلا بإسمي في العلم ،
وكان قد سألني في نزهة من نزهاتنا ، في ذلك اليوم نفسه الذي
ناديته فيه بإسمه ، قال :

— ما اسمك ؟ .

فأجبت .

— ولكنك تعرفه يا كازمير ، إنني أدعى السيد لاكاز .
فقال :

— لا أقصد لقبك ، وإنما اسمك العلم) .

لطيف منك أن تكتب إلي ؛ كان لخطابك وقع لطيف
لأن الكارفورش أصبحت الآن كهيبة جداً . أصيبت جدتي يوم
الخميس بنزلة ألزمتها الفراش ولم تعد تستطيع مغادرة حجرتها ،
حضرت والدتي إلى الكارفورش ، وسافر الأب لأنه عين راعياً على
« بروي » ، ثم توفي خالي وخالتي بعد ذلك . وأول من توفي منهما
خالي الذي كان يحفظ لك في قلبه ودأً عظيماً ثم لحقت به
خالتي يوم الأحد بعد أن لزمت فراشها ثلاثة أيام . لم تكن والدتي
قد حضرت بعد ، وكنت وحدي مع لولي ورفيى زوج
جراسيان ؛ وهي تحبني كثيراً . وكان الموقف أليماً لأن خالتي
كانت لا تريد فراقى ، ولكن لا بد من ذلك ، وأنا أنام الآن في

حجرتي بجانب دلفين لأن لولي استدعاها أخ لها في «الأورن» .
وجراسيان كذلك لطيف معي ، وهو يعلمني طريقة فصل
الأشجار وتلقيحها ، وأنا أجد في هذا تسلية طريفة ، وأعاونه
كذلك في تحطيب الأشجار .

عليك أن تنسى الورقة الصغيرة التي كتبت فيها ذلك
التعهد الذي أخذته على نفسك بالجميء ، فإنك لن تلقى أحداً
يستقبلك هنا ومع ذلك فإنه يؤسسيني أشد الأسى أن أحرم
رؤيتك ، لأنني أحبيتك ، ولكنني لن أنساك .

صديقك الصغير

كازمير

لم تبعث وفاة السيد فلوش وزوجه في نفسي شيئاً من
الحزن ، ولكن هذا الخطاب الذي كتب دون أية دراية أو تكلف
وقع من قلبي أبلغ الوقع . ولما كنت في ذلك الحين مشغولاً .
آليت على نفسي أن أمضي إلى الكارفورش مستقصياً متى حلت
إجازة عيد الفصح . لم أكن لأحفل بأن أجد أحداً يستقبلني ،
ولو ذهبت لنزلت إلى بون ليفيك واكتريت عربة تقلني إلى
الكارفورش . أبي حاجة إلى القول إن فكرة لقاء إيزابيل ، لقاءها
المحتمل ، كانت تدفعني إلى الكارفورش قدر ما كانت تدفعني

إليها شفقتي على الصبي ؟ وكانت بعض فقرات الخطاب قد استغلقت عليّ ، ولم أستطع أن أجد الصلة بين الحوادث التي ذكرت في الخطاب ... أكان لا ينبغي أن أرى في مرض العجوز ، وفي حضور إيزابيل إلى الكارفورش ، وفي رحيل الأب ، ثم في وفاة الشيخين تلك الوفاة التي لم تشهدها إيزابيل ، ثم في رحيل الأنسة فردور ... أكان لا ينبغي أن أرى في هذا كله إلا سلسلة من الحوادث العرضية وقعت اتفاقاً ومصادفة بعضها في إثر بعض ... ؟ أم كان يجب أن أبحث عن صلة بينها ؟ . لو هممت السؤال عن هذه الصلة لعجز كازمير عن إفادتي ، ولأحجم الأب عن إخباري . لذا انتظرت مضطراً إلى شهر أبريل ، فلما حلت إجازتي سافرت في اليوم التالي . وأبصرت الأب سانتال في محطة بروي يهم بأن يستقل قطاري ، فناديته ، فقال :

- ها أنت ذا قد عدت إلى البلدة .
- حقاً ما كنت أحسب أنني سأعود إليها قريباً .
- وصعد إلى مقصوري ولم يكن بها أحد غيرنا ، وقال :
- لقد جدّت أمور بعد زيارتك .
- نعم ، علمت أنك قد عينت راعياً لبلدة «بروي» .

دعنا من هذا ؛ — وبسط يده في حركة عرفتها في الحال — أو قد ورد إليك إعلام ؟ .

— نعم ، ولقد أرسلت عزائي إلى تلميذك ، وهو الذي أبلغني الاخبار . ولكنه لم يفض إليّ بما يُغني ، وهممت بالكتابة إليك لسؤالك عن بعض التفاصيل .

— كان عليك أن تكتب .

— قلت ضاحكاً : لقد فكرت أنك قد تحجم عن

إخباري .

ولما كان يشعر بأن لا جناح عليه من الإفضاء الآن ، على غير شأنه أيام كان في الكارفورش ، بدا عليه أنه راغب في الكلام . قال :

— صدقني ، إن ما يجري هنالك ليعث في النفس الحرقه والحسرة ؛ وسوف يصيب مسالك القصر كلها ما أصاب بعضها .

ولم أدرك ما يعني بقوله هذا ، ولكنني لما تذكرت قول كازمير «إنني أعاونه في تحطيب الأشجار» سألته في شيء من السذاجة :

— وما سبب ذلك ؟ .

فقال :

— تسألني عن السبب ؟ سل الدائنين يا سيدي العزيز .
هذا ، وما يفعله القوم في الكارفورش لا يعنيه ، بل وما يجري فيها
يجري دون علمهم . إن الأرض غارقة في الديون مرتنة ، والآنسة
دي سان أوربول تستنزف ما تستطيع استنزافه .

— أهى هنالك ؟

— كأني بك لا تدري .

— لقد قدرت ذلك من بعض عبارات ...

— منذ أن حلت والأحوال ساءت كلها .

وأمسك لسانه لحظة ، ثم غلبت عليه حاجته إلى الكلام
فانطلق يتحدث دون أن ينتظر مني أن أدعوه للحديث ، فرأيت
خيراً ألا أوجه إليه سؤالي . قال :

— كيف علمت بشلل والدتها ؟ هذا عليّ تفسيره ...

لما أن علمت أن البارونة العجوز أصبحت عاجزة عن مغادرة
حجرتها جاءت إليها حاملة متاعها ، فلم تجسر مدام فلوش على
طردها ، وحينئذ رأيت أن أرتحل أنا .

— من دواعي الأسف أنك تركت كازمير على هذا

الوجه

— ما حيلتي ؟ فلست أرى مكاناً إلى جوار مثل هذه

المرأة ... لقد نسيت أنك كنت تدافع عنها !

— ولعلني أدافع عنها الآن أيضاً . إن اقتضى الأمر ذلك
يا سيدي .

— قل ما حلا لك ، نعم ، نعم إن الأنسة فردور كانت
مثلك تدافع عنها ، بل لقد دافعت عنها إلى أن رأيت سادتها
يقضون نحبهم .

كنت أعجب كيف طرح الأب هذه الصنعة اللفظية
المتأنقة التي كان يتوخى التعبير بها أيام أن كان في الكارفورش ،
وكيف تطور سريعاً فاتبع إشارة ولفظاً ، هذا الأسلوب الخاص
برعاة القرى النورماندية .

وعاد يقول :

— لقد بدا لها ، كما بدا لنا جميعاً ، أن وفاة الشيخين معاً
في وقت واحد أمر غريب ...

— أتظن ؟ ...

— لا أظن شيئاً .

ونفخ شفته العليا كدأبه ، ثم استأنف يقول :

— على أن الناس في البلدة أخذوا يتقولون ...
يتقولون ... فإنه لا يرضيهم أن تترث الأنسة خالتها . وها انت ذا
ترى أن فردور نفسها آثرت الرحيل على أن ترى ذلك .
— ومن يلزم كازمير اذن ؟ .

— آه ! أرى أنك فهمت أخيراً أن أم الصبي ليست
بالمعشر الطيب له .. حسناً ! إنه يقضي أكثر وقته مع البستاني
وزوجه .

— جراسيان ؟ .

— أجل ، ولقد عارض في اقتلاع الأشجار من الغيضة ،
ولكنه لم يفلح إن هذا لعين الشقاء .
— ومع ذلك فأظن أن فلوش وزوجه لم يكونا معسرين .
— لا ، ولكن أموالهما ذهبت كلها منذ البداية .
والكارفورش مؤلفة من ثلاث مزارع ، بيعت إلى الفلاحين
مزرعتان منها كانت تملكهما مدام فلوش ، وذلك منذ أمد طويل .
أما الثالثة فما زالت ملك البارونة ، وهي من قديم لا تؤجر إلى
الفلاحين بل يشرف عليها جراسيان ويعنى بغلتها ؛ ولكنها لن
تلبث أن تعرض للبيع أيضاً مع ما تبقى .

— هل تعرض الكارفورش للبيع ؟ .

— نعم سوف تعرض الكارفورش للبيع بالمزاد العلني
ولكن لن يتيسر ذلك قبل نهاية الصيف ! والآنسة تستمتع ما
وسعها الآن من ذلك إلى أن يحين يوم البيع . ولكن ذلك لن
يدوم ، وإذا ما اقتلع نصف الأشجار ...

— وكيف تجد من يشتريها منها ان كان لا حق لها في بيعها ؟ .

— إنك ما زلت شاباً لا خبرة لك ، متى عرضت السلعة بثمن بخس ظهر الشاري .

— ولكن أصغر محضر في وسعه أن يوقف البيع .

— إن المحضر متواطىء مع محامي الدائنين الذي نزل في القصر — ومال على أذني وأسر إلي — أعلم ، ما دام يحلو لك أن تعلم كل شيء ، ان المحامي يقتسم فراشها .
فسألته دون أن أبدي أي تأثير مما فاه به :

— وماذا صنعوا بكتب وأوراق السيد فلوش ؟ .

— سيطرح متاع القصر ومكتبته للبيع قريباً ، أو على الأصح سيوقع عليها الحجز . ولا يفطن أحد لحسن الحظ لقيمة بعض المؤلفات بالمكتبة وإلا لاختفت منذ زمن طويل .
— لعل لصاً خبيثاً يظهر فجأة .

— لا خوف من ذلك ، فإن الأختام وضعت عليها ، ولن تفرض إلا حين الجرد .

— وما رأي البارونة في هذا كله ؟ .

— إنها لا تفطن لشيء ، وطعامها يقدم إليها في حجرتها ؛ بل إنها تجهل أن ابنتها تقيم في القصر .

— والبارون ؟ ما خبره ؟ .

— لقد توفي منذ ثلاثة أسابيع في ملجأ كنا قد سعيينا إلى قبوله فيه .

كان القطار قد بلغ بنا بون ليفيك ، فحضر قس للقاء الأب سانتال فاستأذن مني مودعاً بعد أن دلني على فندق وصاحب عربة لاستئجارها .

وأقلتني العربة التي اكرتها غداة ذلك إلى مدخل الغيضة في الكارفورش . واتفقنا مع صاحب العربة على أن يحضر ليعود بي بعد ساعتين تستريح في اثائها الخيول في حظيرة من حظائر ضياع المزرعة .

ووجدت الباب الحديدي في الغيضة مفتوحاً على مصراعيه ، أما الطريق فقد كان تالفاً ، أتلفته عربات النقل الثقيل ، وكنت أتوقع أن أشاهد أشد الخراب والتدمير ولكنني رأيتني جذلان أطرب إذا وقعت عيناى فجأة عند مدخل القصر على « شجيرة الزان ذات أوراق الخوخ » ، وقد نجمت براعمها كأعين الجراد ؛ ولم أفكر حينئذ أنها تدين بحياتها إلى رداءة نوع خشبها . وفيما أنا أمضي لاحظت أن الفأس أصابت أجمل الأشجار ؛ وأردت قبل أن أتجمل في الغيضة أن أزور هذا النزل الصغير الذي اكتشفت فيه خطاب إيزابيل ، ولكنني رأيت على

بابه قفلاً منيعاً مكان مزلاجه المكسور ، (وعلمت بعدئذ أن الخطابين يستودعون هذا النزل آلاتهم وثيابهم) فسلكت طريق القصر . وكان هذا الطريق مستقيماً يحف بجانبه غنوسج لم يرتفع إلا قليلاً ولم يكن يؤدي إلى واجهة القصر بل كان ينتهي إلى ذلك الجناح الذي فيه المرافق والمطبخ وقبالته حاجز المبقلة الصغير . وبينما أنا على مقربة من البستان أبصرت فجأة جراسيان يخرج منه وفي يده سلة بها خضر ، ولم يعرفني أول ما رأيته ، ولكنه خف إلي لما ناديته فعرفني وصاح :

— السيد لاكاز ! حقاً ما من أحد كان ينتظر قدومك في هذه الساعة :— ولبت حيناً ينظر إلي وهو يهز رأسه دون أن يحاول إخفاء ما يسببه له قدومي من انزعاج ثم أضاف في لهجة خف ما فيها من جفاء — ومع ذلك سوف يفرح الصبي للقائك .

وقطعنا بضع خطوات نحو المطبخ دون أن نفوه بحرف ، فلما بلغناه أوماً إلي أن أنتظر ودخل يودع سلته ، ثم عاد وقال في لهجة رقت بعض الرقة :

— وإذن فإنك جئت لترى ما يجري في الكارفورش ؟ .

— ويبدو لي أن ما يجري فيها ليس بالحسن .

ونظرت إليه فرأيت ذقنه ترتعد ، وأطرق لحظة ثم قبض على

ذراعي فجأة واقتادني إلى الخصرة الممتدة أمام شرفة قاعة
الإستقبال فوجدت في هذا المكان جسم شجرة من البلوط طريجة
صرعى ، وتذكرت أنني كنت قد احتميت بهذه الشجرة حين
فاجأني المطر في الخريف . وكان حول هذه الشجرة أكداس من
أغصان الشجرة التي اجتثت منها قبل قطعها . قال :

— أتدري يا سيدي بكم تقوم أمثال هذه الشجرة ؟
بأثنتي عشر «بستولاً» ؛ ثم هل تدري بكم بيعت هي
وأمثالها ؟ . بمائة «سو»^(١) .

كنت أجهل أن القوم في تلك الأنحاء يطلقون على قطعة
النقود ذات العشرة فرنكات لفظ البستول ، ولكن الساعة لم تكن
ملائمة للسؤال عن ذلك . وكان جراسيان يتكلم وهو يحقد
غيطاً ، فالتفت إليه فرأيتَه يمسح بظهر يده عبرة المحدث أو عرقاً
سال ، ثم ضم قبضته ، وصاح :

— يا للأوغاد ! يا للأوغاد ! إنني أكاد أجن يا سيدي
حين أسمع قووسهم أو حداثاتهم تعمل في الشجر . إنها تصيب
من رأسي فأكاد استغيث صائحاً : اللص ! .

بل قد تملكني أحياناً رغبة في القتل . ولقد قضيت أول
أمس مستخفياً في القبو حيث كان الصوت يأتيني خفياً أو

(١) «السو» : جزء من عشرين من الفرنك .

كالحفيف . ولقد رأى الصبي ، في بادئ الأمر ، حين شاهد
فؤوس الخطابين تعمل في الأشجار ملهاة طريفة لأنهم كانوا
يدعونه ليشد الحبل معهم كلما أوشكت شجرة أن تسقط ؛
ولكن لما أن دنا أولئك الأوغاد شيئاً فشيئاً من القصر وهم
يواصلون قطع الأشجار لم ير الصبي في هذا العمل طرافة . وكان
يتوسل إليهم قائلاً : بالله لا تقطعوا هذه الشجرة ! لا ،
لا تقتلعوها ! . وقلت له يوماً : يا بني المسكين ، لن تكون لك
هذه الشجرة أو تلك ولو أمسكوا عنها ؛ وذكرت له أنه لن يمكنه
البقاء في الكارفورش ، ولكنه صغير غر ، لا يدرك كيف أصبح
لا يملك شيئاً . آه لو تيسر لنا البقاء في الضيعة الصغيرة لقبلت
مغتبطاً أن أصطحب الصبي معي . ولكن من يدري من سوف
يقتنيها ؟ وأي غد سوف يحتل مكاننا فيها ... لست بالشيخ
الهرم يا سيدي ، ومع ذلك كنت أؤثر ألا يمتد بي أجلي حتى أرى
ما قدر لي أن أرى .

— من يقيم الآن في القصر ؟ .

— لا أروم أن أعرف ذلك . إن الصبي يتناول طعامه معنا

في المطبخ وهذا خير له ؛ أما سيدي البارونة فلينهاه لا تغادر
حجرتها ، وهذه نعمة من عند الله ... وتحمل إليها دلفين الطعام

متوخية المرور من سلم الخدمة متجنبة من تود اجتنابهم . أما هم
فلديهم خدمهم الخاص وليس بيننا وبينهم صلة ولا كلام .
— ألا ينتظر أن يقع على متاع القصر حجز ؟ .
— إن حدث هذا اصطحبت سيدتي البارونة إلى الضيعة
إلى أن تباع مع القصر .

وسألته ولساني يتردد ، لا يدري كيف يدعوها :
— والآنسة ... ابنتها ؟ .
— قال : فلتذهب حيثما حلا لها الذهاب إلا عندنا ؛ إنها
سبب كل ما حدث .

وكان صوته متهدجاً يرجف من شدة الغضب ، فأدركت
في هذه الآونة كيف استطاع أن يذهب إلى ارتكاب ما ارتكب
صوناً لشرف سادته . وسألته :
— أهى الآن في القصر ؟ .

في هذه الساعة لا بد أنها تتريض في الغيضة — وانها
تشاهد أولئك النفر الذين يقتلعون الأشجار . ويظهر أن ذلك لا
يسوؤها ، بل هي لا تستحي من التحدث إليهم أحياناً . أما إذا
أمطرت السماء فإنها لا تغادر حجرتها . ها هي ذي حجرتها ،
إنها تلك التي تؤلف زاوية القصر ، وإذا أمطرت السماء وقفت

خلف زجاج النافذة ومدت بصرها إلى الحديقة لو لم يكن صاحبها
في «لزيو» لما خرجت هذه الساعة آه يا سيد لا كاز يا لهم من
رهط جميل ! لو أُتيح لسادتي المساكين أن يعودوا للحياة
ليشاهدوا ما آلت إليه الحال في ديارهم لرجعوا على الأثر من
حيث أتوا .

— ألا ترى كازمير هنا ؟ .
— أظنه أيضاً في الغيضة يتريض . أتود أن أستدعيه ؟ .
— لا ، سوف أجده بنفسه . إلى اللقاء ، سأراك قبل
رحيلي أنت ودلفين من دون شك .

كان الدمار الذي أنزله الخطابون بالأشجار يبدو أبشع
ما يكون ، لا سيما أننا كنا في فصل الربيع والطبيعة تتهياً لأن
تبعث الحياة في كل شيء . وقد مال إلى الدفء ، وكنت أرى
شعب الأغصان تنبض وتنتفخ ، والبراعم تنجم وتتفجر بينما كان
مبتور الغصن يكي ماء حياته . كنت أمضي متأني الخطو
مكتئباً وقد أثارت اكتئابي هذه المناظر التي كانت تفيض كآبة
من حولي وشعرت بشيء أشبه بالدوار ، ناشيء بلا ريب عن
أريج الأرض وهي تعمل وما يتضوع من الأشجار وهي تحتضر .

ولكن هذا التعارض بين البعث والموت كان لا يكاد يؤثر في نفسي .

وهكذا انحسرت الغيضة وأفسحت للشمس أرجاءها
فغمرتها ، وخلعت عليها من تبرها خلعاً كست بها الميت
والحي . ولكن صدى الفؤوس الأليم ، الذي يدوي بعيداً فيرجع
الفضاء رنينه الحزين ، يصد من ابتهاج قلبي . وشعرت بأن
خطاب الغرام الذي حملته معي في ترحالي وأخذت على نفسي ألا
أنتفع به بتاتاً ، وكنت أحياناً أضمه إلى قلبي ، يضم النار في
صدري . وكنت أردد في نفسي : ما من شيء يستطيع اليوم أن
يقف في سبيلي . ورأيتني أبتسم لما أن شعرت ، حين فكرت
فيها ، بأني أسرع الخطو لا منقاداً بإرادتي ولكن « بقوة » في
النفس كامنة تدفعني إلى الإسراع . وكنت أعجب كيف يستطيع
الدمار ، على ما فيه من وحشة ، أن يجعل مناظر الطبيعة من
حولي تفيض حياة ، فيضاً يزيد في إمتاعي . وأعجب كيف لم
ينل من ولعي بإيزابيل افتتاح الأب ، وكيف كان كل ما يبلغني
عنها يزيدني شوقاً إليها دون أن أقر هذا الشوق وما الذي يربطها
اليوم بهذه الأماكن الآهلة بذكريات بغيضة ؟ كنت أعرف أنه لن
يؤول إليها شبر من الكارفورش المبيعة . فلم لا تفرّ ؟ وخطر لي ألاّ

أتردد في اختطافها في عربتي هذا المساء . وأسرعت خطاي ، فإذا
بي أكاد أجري حين أبصرتها على مقربة مني . كانت هي هي بلا
مرء ، في ثياب الحداد ، حاسرة الرأس ، قد جلست على جذع
شجرة طريجة تعترض الطريق . وخفق قلبي خفقاناً شديداً حين
رأيتها بحيث اضطرت إلى الوقوف قليلاً ؛ ثم مضيت إليها وأنا
أتأني في خطاي كأنني متنزه هادئ البال لا مأرب له ،
وسألتها :

— معذرة يا سيدتي ... ألسنت في الكارفورش ؟ .

وأبصرت إلى جانبها سلة لأشغال الإبرة موضوعة على
جذع الشجرة ، وكان بالسلة بكرات وأدوات للخياطة وقطع من
نسيج الكريب بعضها ملفوف وبعضها محلول ، وكانت تنهياً لأن
تضع رقاعاً من هذه القطع على كساء للرأس مصنوع من
الجوخ ، تمسك هذا الكساء بإحدى يديها .

ورأيت على الأرض شريطاً أخضر قد انتزعته بلا ريب عن
كساء الرأس من أمد قصير . وكانت تتلفع بمعطف صغير أسود
يغطي كتفها ، فما رفعت رأسها أبصرت إبريماً أو عقرباً من
تلك العقارب المبتذلة التي تشد وثاق المعطف حول الجيد . وليس
من شك في أنها كانت قد أبصرتني من بعيد لأنها لم تدهش حين
فاجأتها بسؤالي ، وقالت :

— أو قد حضرت لشراء القصر ؟ .
وما أن سمعت هذا الصوت حتى عرفتة وخفق له قلبي ...
ما أجمل جبينها الحاسر ! قلت :
— إنما حضرت كزائر فحسب ، لقد رأيت الأبواب
مفتوحة والناس في الغيضة يتجولون . ولكن لعلي أتطفل ؟ .
— كل من أراد الدخول يستطيع الآن أن يدخل ! —
وتنهَّدت طويلاً ثم عادت إلى ما كانت تعمل فيه كأن الأمر قد
انتهى بيننا .

ولما كنت لا أدري كيف أواصل حديثاً ، قد يكون
الوحيد بيننا إذ كان لا بد أن أقطع بعده برأي ، حديثاً لم أكن
أرى الوقت حان لأن أعرض له إذ كنت أحرص على ألا أعرض له
دون بعض الحيلة ، ولما كان الفكر والقلب يفعمهما الانتظار
وتتردد فيهما أسئلة لا يجروء على إلقائها لساني ، وقفت آونة أدفع
بطرف عصاي شذيات الخشب وأنا حائر الفؤاد مزعزع النفس
أجمع في الوقت نفسه بين أشد القحة وأقل الدراية ، حتى رأيتها
آخر الأمر ترفع بصرها وتحدجني ، فحسبت أنها ستغرق في
الضحك ، ولكنها قالت في بساطة :
— هل أنت فنان ؟ .

ليس من شك في أنها لم تسألني هذا السؤال إلا لأنني
كنت في ذلك الحين أرتدي قبعة رخيصة وأترك شعري
يسترسل ، هذا إلى أنه لم يكن يبدو عليّ أن أعملاً تستحطني .
وأجبتها مبتسماً :

— لا ، للأسف . ولكنني استطيع مع ذلك أن أستسيغ

الشعر ...

وشعرت بعينها ترنو إليّ مستوضحة أمري وأنا لا أجسر
أن أرفع طرفي إليها . ودار بيننا حديث ثقيل على نفسي بغض
إليها . في ابتذاله ونفاقه ، وإنني لأشعر بأمض الألم في نقله .
واصلت الحديث فقلت .

— ما أجمل هذه الغيضة ! .

وبدا لي أنها لم تكن إلا راغبة في الحديث وإن الذي كان
يحيرها ويحيرني إنما هو تخير السبيل إليه ، فإنها قالت على الأثر انه
ليس في إمكاني أن أتصور مظهر الغيضة في الخريف ، فالربيع
الآن لا يزال في بدايته يرتعد من برد الشتاء وأضاف إنني لا
أدري ما قد يتبقى منها بعد إعمال القطع والتدمير التي يقوم بها
الخطابون .

فصحت :

— أليس في الإمكان ردّهم عن ذلك ؟ .

فرددت قولي ساخرة ، وهي ترفع كتفها عالياً :
— رُدُّهم ! .

وحسبت أنها كانت تبغي أن تريني قبعتها الغثة شاهداً على مدى بؤسها ، ولكنها لم ترفعها إلا لتضعها على رأسها ثم ألقت بها إلى خلف بحيث ظل جبينها حاسراً . وأخذت بعد ذلك ترتب قطع نسيجها كأنها تتهياً للقيام . فملت إلى قدميها والتقطت شريطها الأخضر ثم ناولتها إياه .

فلم تتناوله وقالت :

— وما أصنع به الآن وأنا على ما ترى من حداد ؟ .
وما إن نطقت بهذه العبارة حتى أفضيت إليها بما شعرت به من حزن لما علمت بوفاة السيد فلوش وزوجه ثم بوفاة والدها البارون ؛ فلما أظهرت دهشتها لمعرفتي أهلها صرَّحتُ لها أنني قضيت اثني عشر يوماً معهم في شهر أكتوبر من العام المنصرم .
فسألتني في جفاء :

— ولم ادعيت إذن من آونة أنك لا تعرف أين أنت ؟ .
— ذلك أنني كنت أتلصص سبيلاً إلى الحديث معك .
ثم من غير أن أكشف لها عن طوية أمري إلا قليلاً ، أخذت أروي لها قصة الفضول الجارف الذي حملني على الإقامة

في الكارفورش يوماً بعد يوم أَمْلاً في لقائها ، وأبنت لها عن أسفي الشديد لعودتي إلى باريس دون أن أحظى برؤيتها ، (ودون أن أذكر شيئاً عن تلك الليلة التي فاجأتها فيها مع خالتها وأُمها) .
— وما الذي بعث فيك هذا الشغف الشديد بمعرفتي ؟ .

وكُفْتُ عن تكلف القيام ، فجذبتُ إلى مقربة منها حزمة كبيرة من الخطب جلستُ عليها في مواجهتها ؛ ولما كنت في وضعي هذا في منخفض بالقياس إليها كنت مضطراً إلى أن أرفع بصري إليها فشاهدتها منكبة على عملها ، منصرفة إلى لف وتكوير شرائط من نسيجها كما تفعل الصبية ، وبحث عن عينيها ولكنها لم تعد تقع على عيني . وحدثتها عن صورتها الصغيرة وسألتها في قلق عن مآل هذا الوجه الذي ولعت به أكبر الولع ، ولكنها كانت تجهل أمره ، وقالت وهي تضحك ضحكاً جافاً وقع في قلبي أسوأ الوقع :

— وما من شك في أنهم سيعثرون عليه حين ترفع الأختام ... وسوف يعرض للبيع كغيره ؛ وفي وسعك أن تقتنيه ببضعة دراهم إن كنت لا تزال راغباً فيه .

فأبدت لها أسفي على أنها لا تراني صادق الشعور جاداً فيما أدعي ؛ وقلت لها لئن كنت لم أعرب عن شعوري هذا إلا

الآن ، وفجأة ، فقد كانت من أمد طويل تشغل فكري . ولكنها ظلت جامدة الوجه وكأنها قررت ألا تسمع مما سمعت . كانت الساعة تتطلب سرعة البت . ألم يكن معي ما يكسر شوكة صمتها ؟ وأحسست بخطاب الغرام الملهب يرجف بين أصابعي . وكنت قد أعددت رواية ملفقة عن علاقة قديمة كانت قائمة بين أسرتي وأسرّة جنفر فيل . أعددت هذه الرواية على أمل أن أذكرها في سياق الحديث فأحملها على الكلام . ولكنني شعرت في تلك اللحظة عينا بما في روايتي الكاذبة من سخف ، فصرّحت لها بأية مصادفة غريبة وقع هذا الخطاب بين يدي ، وناولتها إياه قائلاً :

— بالله يا سيدتي لا تمزقي هذا الخطاب ! رديه إليّ ...
وكان وجهها قد تغير واستحال لونه إلى صفرة الأموات ؛ واحتفظت بالخطاب على ركبتيها دون أن تطالعه ، ولبثت حيناً ساهمة العين لا يستقر لها طرف في حين كانت تردد :
— لقد فاتني أن أسترده ! كيف فاتني أن أسترده ! .
— لقد حسبت بلا ريب أنه تسلمه ، أو أنه ذهب ليتسلمه ...

وكانت لا تزال معرضة عني لا تصغي إليّ ؛ فأتيت بحركة أبغي بها أن أسترده الخطاب ، ولكنها لم تفهم ما بغيت وأولت

حركتني إلى غير ما كنت أرمي ، فدفعت يدي في جفاء وزجرتني
صائحة :

— إليك عني .

ثم نهضت من مكانها تبغي الفرار ، فتعلقت بأهدابها
وجثوت أمامها على ركبتني قائلاً :

لا خوف عليك مني يا سيدتي ، إنك لترين اني لا أبغي
بك سوءاً .

فلما أن عادت إلى الجلوس ، أو بعبارة أصح لما ارتمت على
جذع الشجرة خائرة القوى ، توسلت إليها ألا تغضب عليّ لأن
المصادفة اختارتني لأكون حافظاً لسرها من غير إرادة ، ورجوتها
أن تبقى على هذه الثقة ، وأقسمت لها ألا أذيع سرّاً أبداً . آه لِمَ
كانت لا تروم أن تعتبرني صديقاً صدوقاً مخلصاً لا يعرف عنها إلا
ما خصته بمعرفته ! .

لعل ما ذرفت عيناى من سخين الدمع وأنا أناجيها كان
أبلغ أثراً من مناجاتي ، وقلت :

وا أسفاه ! لقد بلغني كيف انتزعت المنون صاحبك في
تلك الليلة المشؤومة ... ولكن كيف بلغك هذا الخبر الأليم ؟
وماذا كان منك حين رأيته لا يظهر ؟ فقالت في صوت
مكتئب :

— ما دمت مطلعاً على كل شيء فإنك لا تجهل إذن أنني
لم أكن في تلك الليلة أنتظر مجيئه بعد أن أنبأت جراسيان بأمره .
وتراءت لي الحقيقة فجأة بشعة ، أبشع ما تكون حتى لم
أتمالك نفسي عن الصياح .

— كيف ؟ أنت التي أمرت بقتله ؟ .
وحيث تركت الرسالة والسلة تهويان إلى الأرض وأخذت
جبينها بين يديها وأجهشت في البكاء ، فملت عليها وحاولت أن
أمسك يدها ولكنها دفعتنني قائلة :
— لا ! إنك غليظ القلب جحود .

وأدركت أن صيحتي الطائشة أفسدت اطمئنانها إليّ
وأوقفتها عن متابعة الكلام ؛ كنت لا أزال جالساً أمامها وأنا
مصمم على ألا أبرح جانبها ما لم أعرف أكثر مما عرفت . فلما
أن كفكت دمعها أقنعتها بأنها أفاضت وأفصحت بحيث لا
تستطيع أن تسكت عن الكلام دون ضرر . ثم قلت لها إن
اعترافها الصادق لن يغض من قدرها عندي وإنه ليس من شيء
أشد إيلاماً على نفسي قدر تعلقها بالصمت واعتصامها
بالكتمان . فاعتمدت برفقها على ركبتها وحجبت وجهها بيديها
المشبوكتين وروت لي ما يلي :

كتب هذا الخطاب في الليلة السابقة على الليلة التي تعين فيها الفرار ، كتبته خلال ما ألم بها من أرق ، ولوعة الهوى قد بلغت أقصاها . فلما أمست وأصبحت حملت هذا الخطاب إلى النزل وزجته في الموضع الخفي الذي كان يعرفه صاحبها ، وكانت تعلم أنه سيأتي بعد قليل لاستلامه . ولكنها لما عادت إلى القصر وأبعدت نفسها في تلك الحجرة التي كانت تنوي فراقها فرقة دائمة شعرت بضيق لا سبيل إلى وصفه ، فيه جزع شديد من هذه الحرية المجهولة التي طالما تآقت نفسها إليها في حرقه ووحشة ، وفيه خوف فائق من صاحبها الذي كانت مع ذلك لا تزال تصبو بجوانحها إليه ، ثم فيه إشفاق بالغ من نفسها وبما كانت مقدمة عليه . نعم كان عزمها صحيحاً ، نعم كان كل رادع مقهوراً مكبوتاً ، قد ارتضت العار وقبلت أن تجربه حتى آخر جرعة ، ولكنها حين رأت أن لا شيء يقف بينها وبين ذلك الباب المفتوح الذي يدعوها للفرار ، شعرت فجأة بخور وضعف وكأن قلبها كف عن النبض ، وإذا بفكرة الفرار أصبحت بغیضة إليها لا تستطيع احتمالها فجرت تنبؤ جراسيان بأن البارون دي جنفريل اعتزم ، هذه الليلة عينها ، أن يختطفها من ذوبها ، وقد يلقاه في المساء طائفاً ما بين المنزل والباب الحديدي ، ولا بد من دفعه إن دنا من القصر .

فلما أبديت لها دهشتي لأنها لم تذهب بنفسها لاستحضار هذا الخطاب واستبداله بآخر كفيل بأن يجعل صاحبها يعدل عن مشروعه الجنوني ، لما أن ألححت عليها في سؤالي مستقصياً ، أخذت تهرب من الجواب وتعتذر والدمع ينحدر من عينيها ، قائلة إنها كانت تعلم علم اليقين بأنه ليس في وسعي أن أفهمها كما أنها تعلم بأنه ليس في وسعها أن توضح خيراً مما أوضحت ؛ ولكن في ذلك الحين كانت تشعر بأنها عاجزة عن صد صاحبها عجزها عن اللحاق به ؛ ثم إن الخوف كان قد شل قواها وأقعد لها فلم تعد قادرة على العودة إلى المنزل ، هذا إلى أنها كانت تخضع ، في تلك الساعة من النهار ، لرقابة أبويها الصارمة بحيث لم تلجأ إلى جراسيان إلا مكرهة راغمة ؛ وأضافت :

أكان في وسعي أن أقدر أن جراسيان سيعتبر هذا القول ، الذي أفلت مني في هذياني ، جدّاً ؟ لم يخطر ببالي إلا أنه سوف ينحيه أو يردّه ... فلما أن سمعت بعد ساعة من الزمن طلقاً نارياً يدوي جهة الباب الحديدي انتفض جسمي كله ؛ غير أنني عدلت بفكري عن هذا الاحتمال المروع الذي كانت تعافه نفسي وتأباه ؛ بل رأيتني ، مذ أخبرت جراسيان خبري ، أشعر — على نقيض ما كنت أشعر من قبل — بأن السكينة حلت

بفؤادي وفكري وبأبني بدأت أتنفس ... فلما أن جن الليل
وأقبلت الساعة التي تعين فيها الفرار رأيتني دون طوعي أنتظر ،
وعاد إليّ الأمل ، أمل كاذب امتزج بياسي ليهديء من روعي . لم
يكن في استطاعتي أن أقدر أن لحظة من الخور أو ساعة من
الضعف في إمكانها أن تطوح دفعة بطائل أحلامي . نعم ،
بطائل أحلامي لم أكن أفقت منها بعد ، فقد رأيتني أشبه
بالنائم ، أنزل إلى الحديقة فأرصد كل صوت وظل ، وأعلل
النفس بالانتظار ..

وعادت إلى نحيبها ثم قالت :

— لا ، لم أكن أعلل النفس بالانتظار ، وإنما رثاء لحالي
كنت أحاول أن أوهم نفسي انتظر . كنت قد جلست على
أسفل درج الشرفة حيث الخضرة تمتد أمامي . وكان القلب قد
جف حتى لم تعد به عبء ، وجلا الفكر حتى قصر عن
الإدراك ، فلم أعد أعرف من أنا ، ولا أين أجلس ، ولا ما دعاني
إلى المجيء . أما القمر الذي كان من قليل يغمر العشب بضوئه
فقد توارى خلف السحب ؛ وسرت في بدني كله رعشة خلتها
رعشة الموت ، ففكرت : يا ليتني أموت ! وتنفس الصبح فرأيتني

طريحة الفراش معتلة الجسم ، وكشف الطبيب الذي عادني عن حملي فكاشف به والدتي .

وسكتت حيناً ثم قالت :

— والآن وقد عرفت ما رغبت في معرفته فإنني لو مضيت في حديثي لسمعت قصة امرأة أخرى لن تعرف فيها صورة إيزابيل التي عرفتها .

والحق أنني كنت بدأت لا أعرف فيها تلك المرأة التي علق بها خيالي ، فقد كانت تقطع حديثها بأناشيد شاقيات تارة لتلوم الأقدار وتارة لتأسف على أن الشعر والعاطفة أبداً على ضلال ؛ ولكنني لم ألق في صوتها ذلك اللحن الصادق الذي يصدر عن حرّ القلب ، فسألتني ذلك . لم يكن أسفها يقع إلا عليها وحدها ! وفكرت : أهذا كل ما تعرفه عن بذل النفس في سبيل الهوى ؟ .

والتقطت ما تناثر على الأرض من سلة الأشغال حين انقلبت لم أكن أشعر برغبة ما في أن أدفع سؤالي إياها إلى أبعد مما دفعت ؛ وفجأة أصبحت لا أحفل بشخصها ولا آبه بحياتها ، ووقفتُ إليها كما يقف صبي إلى لعبة حطمها ليكشف عن سرها ؛ فلم تعد تسبيني تلك الفتنة التي كانت لا تزال تزنيها ، لا ولا

طرف أهدابها على لحظها الناعس غدا يهيج في أية صباية . كان الحديث قد انتهى بنا الكلام عما وصلت إليه من عسر وضيق ، فلما سألتها عما تنوي عمله قالت :

— سأحتال على إعطاء دروس ، دروس في البيان والغناء . لي طريقة جيدة جداً .

— آه ! لو تغنين ؟ .

نعم ، أغني وأعزف على البيان . إنني تلميذة تالبرج... ولقد تدرّبت فيما مضى تدريباً طويلاً .. هذا وإني مولعة بالشعر أيضاً ولعاً شديداً .

فلما رأت إني لا أقول شيئاً أضافت :

— أنا واثقة من أنك تروي الشعر ، ألا تبغي أن تنشد لي طرفاً ؟ .

وعافت نفسي هذا الحديث الشعري المبتذل ونفرت منه نفراً أخذ كل ما بقي في قلبي من جذوة للحب ، فنهضت مستأذناً ، فقالت .

كيف ! أبهذه العجلة تنصرف ؟ .

وا أسفاه ! إنك لتشعرين مثلي بأنه من الخير أن أنصرف الآن . تخيلي أنني أقمت بين أهلك في الكارفورش في خريف العام

المنصرم ، وفي ذات يوم وأنا أجلس في الجو الحار غلب الكرى
أجفاني فنمت ، ثم أثناء نومي ألم بأحلامي طيف علقت به والآن
فقط استيقظ من أحلامي . الوداع .

وبدا في منعطف الطريق شبح صغير يعرج فقلت :
يخيل إليّ أنني أرى كازمير ، لعل لقائي يسره .
انتظره فإنه قادم إلينا .

كان الصبي يتقدم وهو يخبّ وعلى كتفه مجرفة .
أتسمحين لي أن أمضي للقاءه ؟ لعله يستاء إن لقيني إلى
جوارك . معذرة ...

ولم أتخير السبيل لأعجل انصرافي فودعتها في أدب ثم
مضيت .

لم أر إيزابيل دي سان أوربول من بعد ، ولم أعلم من أمرها
شيئاً ؟ .

بلى : لما أن عدت إلى الكارفورش في الخريف التالي
أنخبرني جراسيان أنها هربت مع حوذي ليلة أن طرح متاع القصر
للبيع وذلك بعد أن هجرها محامي الدائنين . ثم أضاف في
أسلوب قاطع .

— يا سيد لاكاز ، لم يكن في إمكانها أن تعيش وحدها ،
لكن في استطاعتها أن تعيش بلا رجل .

وبيعت مكتبة الكارفورش في أواسط الصيف دون أن أعلم
بموعدها بيعها رغم ما زودت به القوم من تعليمات ، وأكبر الظن أن
صاحب مكتبة مدينة « كان » الذي دعي لمراقبة البيع والإشراف
عليه كان لا يحرص على دعوتي إلى المزاد ، كما كان لا يحرص على
دعوة أي هاو صادق من هواة الكتب . وعلمت بعدئذ ، في
دهشة وغضب ، أن التوراة الشهيرة بيعت بخمسة وسبعين فرنكا
لكتبي في البلدة ثم بيعت بعد ذلك توالاً إلى كتبي بثلاثمائة فرنك ،
ولم أعرف اسم هذا الكتبي . أما مخطوطات القرن السابع عشر
فإنها لم تكن مذكورة في قائمة المبيعات ، وعرضت كأوراق قديمة
لا قيمة لها .

كنت أبغي أن أحضر بيع المتاع على الأقل فقد كنت
معتزماً شراء شيء منه ذكرى لآل فلوش ، ولكني لم أبلغ في الوقت
المناسب بتاريخ البيع ، ولذا لما وصلت إلى بون ليفيك كانت
الضيعة والقصر قد طرحا للمزايدة وظفر بالكارفورش ، بثمان
زهيد ، تاجر العقار موزر شميدت ، ثم هم بتحويل الغيضة إلى
المرعى حين ابتاعها منه أحد الهواة من الأمريكيين ، ولا أدري
الباعث الذي دفع هذا الهاوي الأمريكي إلى ابتياع الكارفورش فإنه
من وقت أن اشتراها لم يعد إليها ، وظل القصر والغيضة على الحال

التي شاهدتها . ولما كنت في ذلك الحين قليل المال حسبتني لن أحضر البيع إلا متفرجاً . ولكنني في صباح يوم البيع رأيت كازمير ، وبينما كنت أشاهد المزاد تملكني فجأة إشفاق شديد على هذا الصبي الذي حلت به هذه النوائب فاعتزمت أن أكفل له العيش في تلك الضيعة التي كان جراسيان يصبو إلى الإقامة فيها . أكنتم تجهلان أنني أملكها ؟ وإذا بي لا أكاد أنتبه إلى ما أنا فاعل ، أدفع بالمزاد وأرفعه حتى رست علي الضيعة ، لقد كان ذلك مني عملاً جنونياً ، ولكنني كوفئت عنه أضعافه بما أظهره الصبي المسكين من فرح يثير الأسى حقاً ...

وذهبت إلى هذه الضيعة لقضاء إجازة عيد الفصح ثم إجازة الصيف التالي ، ونزلت عند جراسيان حيث كان كازمير يقيم . كانت السيدة دي سان أوربول لا تزال على قيد الحياة وكنا قد دبرنا أمرنا وأسكنها في أحسن حجرة في الدار ، وكانت قد تطورت بها السن إلى تلك الحال من البله التي هي أشبه ببله الأطفال . ومع ذلك فانها ما كادت تراني حتى عرفتني وتذكرت اسمي أو كادت أن تتذكره إذ قالت :

— هذا يا سيدي دي لاس كازس لطيف منك ! نعم ، لطيف منك هذا ! ذلك أنها ظنت أنني ما حضرت إلى البلدة إلا

لزيارتها ، وقالت تشرح أسباب عسرهما أو تفسر لنفسها أسبابه :
— إنهم يقومون ببعض الإصلاحات في القصر ، وسوف
يكون بعد ذلك جميلاً جداً ! .

ولما حل يوم البيع أخرجت العجوز إلى شرفة قاعة
الاستقبال في مقعدها الوثير ؛ وقدم إليها المحضر على أنه معماري
شهير حضر من باريس خصيصاً للإشراف على أعمال الإصلاح
(وكانت تصدق دون عناء كل ما لاءم هواها) ، ثم نقلها
جراسيان وكازمير ودلفين معاً إلى تلك الحجرة التي أقامت فيها
ثلاثة أعوام ولم تغادرها حتى قضت نحبها .

هذا وترجع معرفتي بآل ب ... الذين تزوجت فيما بعد
إبتهم الكبرى إلى هذا الصيف الأول الذي قضته في ضيعتي .
وليست ضيعة ر .. التي آلتنا إلينا بعد وفاة والدي زوجتي بنائية
عن الكارفورش ، وأنا أذهب إليها مرتين أو ثلاثاً في العام
للحديث مع كازمير وجراسيان ، وكلاهما منصرف الآن إلى فلاحه
أرضه يعنى بها ، ويؤدي إليّ في حينه إيجاره الزهيد .
ولما فارقتهما من قليل لم أذهب إلا حيث يقيمان .



كان الليل قد تقدم بنا عندما انتهى جيران من قصته ،

ومع ذلك فقد كتب جام في هذه الليلة نفسها ، قبل أن يغلب
على عينيه الكرى ، تلك المرثية الرابعة التي مطلعها :
«لما سألتني أن أنعي تلك الديار التريكة المهجورة ،
وعاصف الريح يضرب في جنباتها...» .

صدر عن دار طلّاس للدراسات والترجمة والنشر

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر ^(١)
رسالة الإسلام - الرسول العربي	العماد مصطفى طلاس	٢٥ ليرة
فارس الأطلس - عقبة بن نافع	العماد مصطفى طلاس	١٠
لطير صهيرن	العماد مصطفى طلاس	١٦
راعي القدس - ايلانيون كبرجي ...	العماد مصطفى طلاس	١٥
فارس الجزائر - الأمير عبد القادر ..	العماد مصطفى طلاس	١٧
المصطفى من أحاديث المصطفى ..	العماد مصطفى طلاس (قياس كبير)	٦٠
..... (قياس صغير)	٣٠
كذلك قال الأسد	اختارها العماد (قياس كبير)	٣٠
مصطفى طلاس (قياس صغير)	١٥
حب وبطولة	سليمان العيسى	١٥
قصة المتجني	أحمد الجندي	١٢
صبرا وشاتيلا (تحقيق حول مجزرة) .	أنتون كابليرك	المكتب العربي للترجمة ...	٦
روضة الورد	سعدى الشيرازي	محمد الفراتي	١٥
سعد الله الخابري	أحمد الجندي	١٥

(١) السعر يشمل كامل الأجزاء .

٦	فضال قبلا ن	فراشات عجزية
٩	كوليت الخوري	كيان (قصة)
١٨	صفوان قاضي	البطل والتاريخ
٣٠	محمد حسين هيك	خريف النضب (جزاء)
١٨	لوريس الحاج	كفاحي
١٠	مصطفى لطفي المنفلوطي	ماجدولين
٨	أنجيل عبود	رسالة من امرأة مجهولة
				والحب الجنري
٩	د . سامي الجندي	سقوط السنديان
٢٢	فواز طرابلسي	عشرة أيام هزت العالم
٨	عبد الله حيدر	هكذا يتكلم القائد
١٠	سليمان العيسى	حبات من الرمال الذهبية
				وشعراء آخرون
٩	أحمد الجندي	رواد النغم العربي
٢٥	د . سهيل زكار	حبال من رمل
١٤	سمير عبده	البطالة المنقمة في الوطن العربي
١٨	سليمان العيسى	بالقة نثر
٢٠	اختصره سليمان العيسى	موجز ديوان النبي
				(شرح اليازجي)
١٥	منير البعلبكي	طريق التبغ
١٠	ميشيل واكيم	تولستوي
		قصي الأتاسي		
٨	رواد طريه	حب ياتريس الجديد (شعر)
				(بالعربية والفرنسية)
١٠	أحمد عبد الكريم	الاستراتيجيات
		هنري باريس	المرفئية والأمريكية

شعراء من بلاد الشام	أحمد الجندبي	١٥
رد على التوراة	لدرة اليازجي	١٠
رد على اليهودية واليهودية المسيحية	لدرة اليازجي	٢٥
الصراع على سورية	هاتريك سيل	٢٠
نظرات ومسائل في الإدارة	أحمد الدباس	٤١
روائع طاغور	راهندراناث طاغور	٢٠
الفراشة وقصائد أخرى	سليمان العيسى	١٠
(بالعربية والانكليزية)		
المواصف	جبران سلايل جبران	١٠
البدائع والطرائف	جبران خليل جبران	١٠
النبي	جبران خليل جبران	٨
انسابق	جبران خليل جبران	٥
عراس المروج	جبران خليل جبران	٥
الثالث	جبران خليل جبران	٦
المجنون	جبران خليل جبران	٥
الأرواح المتمردة	جبران خليل جبران	٨
دمعة وابتسامة	جبران خليل جبران	١٠
الحروب والحضارات	مدرسون في المعهد	٢٠
أحمد عبد الكريم		
الفرنسي لعلم الحرب		
بروتوكولات حكماء صهيون	عجاج نويض	٣٠
(جزءان)		
حرب الثلاث سنوات ٦٧-٧٠	الفريق أول محمد فوزي	٢٥
(مذكرات)		
قصة الرعب والجرأة	الكسندر بيك	١٥
دافاليل	لامرتين	١٦
ليكتور هيجر	فريد جحا	١٥

الأمنية الأوروبية.....	اندرية بريغو	أحمد عبد الكريم	١٥
أو الدفاع المشترك المنقود	ر دومينيك دافيد		
الطاعون	البيز كامو	د . سهيل ادريس	١٥
السلام الضائع في اتفاقيات.....	محمد ابراهيم كامل		٣٠
كامب ديفند	و. شاجية مص. الاسم.		
حرب البترول السرية	جاك بيرجيد وبرنار توماس.	الاراء الركن سميج السيد ..	١٢
تاريخ الأدب الغربي (جزءان) ...	مجموعة من الاساتذة		١١٠
مختارات من الشعر الروسي		د . ماجد علاء الدين ..	١٨
إلى أواصل الأرق.....	سليمان العيسى		١١
الحرب العالمية الثالثة	الجنرال جون هاكيت ...	موسى الزعبي	٢٣
يسوع ابن الانسان	جيران خليل جيران.....		١٢
لشيد الجمر	سليمان العيسى		٢٥
من الشعر اليوناني الحديث		الياس معوض.....	١٠
يوميات وزير (جزءان)	ريتشارد كروسمان	العميد صبحي الجاني ...	٥٠
ليالي الشيطان الأخيرة (راسبوتين) ..	فالتين بيكول	عبد الوهاب مدور.....	٤٠
ديك الجن الحمصي	أحمد الجندي		١٠
(ديوان ودراسة)			
سلام غير مرغوب فيه	لجنة أمريكية	اللواء الركن سميج السيد ..	٩
الجدل الكبير حول.....	ريمون آرون.....	اللواء الركن سميج السيد ..	١٥
الاستراتيجية الذرية			
عودة وضاح اليمن (شعر)	د . عبد العزيز المقالح ...		٢٥
الحرب الأهلية العالمية	جاكلين غرابان	اللواء الركن سميج السيد ..	١٤
	وجان بيرنار ينفاتيل		
المسألة السورية المزدوجة.....	ميشيل كرمستان دافيه... اللواء جبرائيل يطار		٢٢
(سورية في ظل الحرب العالمية الثانية)			

عملية كمال عدوان	العماد مصطفى طلاس ..	٨
الثروة الجزائرية	العماد مصطفى طلاس ..	٨٠
مع سليمان العيسى	مجموعة من الكتاب	١٤
من وحي المرأة (شعر)	عمر أبو ريشة	٢٥
كيف سقينا الفولاذ	ليقولاي أوستروفسكي ..	٢٥
رباعيات عمر الحيام	عمر الحيام	١٥
تقديم أحمد الجتدي		
المسيح يُصلب من جديد	نيكولاس كازانتزاكس ...	٤٠
وجيز علم الجنس الهندي	فاتسيانا	٢٠
لحن كرويتزر	ليون ترلستوي	١٣
أنشودة الحب الظاهر (قصص) ..	تورجيف	١٢
الأيام المضنية (قصص)	كوليت الخوري	١٥
أغاني الأغاني (٣ مجلدات)	أبو الفرج الأصفهاني ...	١٠٠
شوارد قلم في الأدب والنقد	محمد روي فيصل	١٥
العمران في مقدمة ابن خلدون	د . سعيد محمد وعد	٤٠
حديث الهيل (شعر بدوي)	عمر القرا	١٢
مذكرات ديغول (٤ أجزاء)	١٠٠
١ - النفير	الجنرال ديغول	عبد اللطيف شرارة
٢ - الوحدة	الجنرال ديغول	عبد اللطيف شرارة
٣ - الخلاص	الجنرال ديغول	خليل هنداري
ابراهيم مرجانة		
٤ - الأمل	الجنرال ديغول	د . سموي فوق العادة
مذبحة صبرا وشاتيلا	العماد مصطفى طلاس ..	٢٢
الاداب المعنوية للصلاة	الإمام آية الله الخميني ...	٦٠
رسائل أبي حيان التوحيدي	د . ابراهيم كيلالي	٢٨

١٠٠	مجموعة من الاطباء الاختصاصيين	من الطبي الموحدة
				زكي — عربي — فرنسي
٢٠	حسين راجي	ن (عن البلغارية)
١٦	حسين راجي	ا ليتا باغريانا (مختارات شعرية)
٢٠	سعد صائب	ع فرنسيون معاصرون
٢٢	سعد صائب	لشعر في قصائد
				مجموعة من الأستاذة
				براء وكلماتهم
٢٢	دار طلاس	بل العمل للرقابة
				المركز الطبي
				لجامعة بوسطن
١٥	د . صبري فهمي	يلا
				اندرية جيد
٢٥	بسام اسخطة	ة بالتازار كوسا
				اليكساندر باراديسيس ..
				ابايوحنا الثالث والعشرون)
١٥	د . محمد عوض محمد	من ودرؤتيه
٢٢	دار طلاس	نكم بوزن الجسم
				ريتشارد . ل . هيل مان
				طريق اليرغا
٣٠	سليم ابراهيم عبود	قي الحرية
٢٥	طاهر حجار	بب والأنواع الأدبية
١٢	عبد اللطيف ارناؤوط	إعم (قصائد للأطفال)
١٤	عبد اللطيف ارناؤوط	صالحير وقوس قرح
				صص للأطفال)
١٨	النص الكامل وإفادات	قرار الكامل للجنة كاهان
				سهيونية حول مذبحه
				بعض الشهود
				برا وشاتيل
٢٠	كوليت الخوري	مر صيف
٣٠	أحمد الفهري	ر الصلاة أو صلاة العارفين
١٠	قدم لها العباد مصطفى طلاس	مضات أفئدة

٢٠	فلاديمير نابوكوف	مروان الجاهري
٣٥	بيرنارد ليدريدج	النواء الركن سميج السيد
١٧	اعداد وجع قسر كيلاي
٣٠	توماس آ . برايسون	دار طلاس
١٥	اندره جيد	د . صبري فهمي
٣٥	كودير لوي دي لاكلو	اديب مروة
٧٥	سهام ترجمان
٣٠	بيتر مانفولد	اديب يوسف شيش
					لي الشرق الأوسط
١٥	غوته	د . محمد عرض محمد
٢٠	صلاح ذهني
١٥	مارسيل برنفر	حسن صادق
١٣	أحمد سعيد هراش
					لي شعرنا المعاصر
٢٠	الدكتور عمر موسى باشا
					راق مسافر

تحت الطبع

- معجم الأسماء العربية..... العماد مصطفى طلاس
الاستاذ نديم عدي
- الفن الاسلامي..... د . عفيف بهنسي
- الجامع الأموي (باللغات : د . عفيف بهنسي
العربية والافرنسية والانكليزية)
- مذكرات ادغار لور..... ادغار لور د . حافظ الجمالي
- عنب المائدة..... مجموعة من الباحثين المجمعين . دار طلاس
- امرؤ القيس..... قسر كيلالي
- (عاشق وبطل درامي)
- الف وخمس مية..... سيمون حمصي
- من الأمثال الشعبية
- ١٠٠ قصة بهيجة للأطفال..... اصدار سليمان العيسى
- (في أربعة أجزاء) دار (ملين) البريطانية بهيج بلدين
- كذلك قال الاسد..... قدم له العماد مصطفى طلاس
- (طبعة ثالثة مزودة ومعدلة)
- حكاية الأميرة جنان..... خالد محي الدين البرادعي
- لا شيء خلف القولاذ..... جاكين سوزان عبد الكريم ناصيف
- (رواية)
- النباتات العسلية..... ترجمة دار طلاس
- دراسات حول النظرية الديتغرافية رينيه دو لاساير د . حافظ الجمالي
- فن التصوير جون هيجكو العماد مصطفى طلاس

- تلخيص التشابه في الرسم أحمد علي ثابت تحقيق سكينه الشهابي
وحماية ما أشكل منه عن بواذر (أبو بكر الخطيب البغدادي)
التصنيف والوهم
- الدليل العملي لمتنحي آلان كاياس دار طلاس
الغذاء الملكي
- العمل غذاء وعافية جان لوك داريغول دار طلاس
- الوجبات الغذائية الهندية السريعة . ميشيل بانديا مهند الفيرة
- التربية الحديثة للأغنام د . بوهير دوليكليز دار طلاس
- الأصابع الصغيرة نزار مؤيد العظم
تنمو لي الظلام
- مناهج التعليم البوليتكنيكي حسين عمر حمادة

العماد

في

اللغة والعلوم والفنون والأعلام

معجم لغوي موسوعي

سيصدر قريباً عن الدار بالتعاون مع مؤسسة

لاروس الفرنسية بترجمة معجمها الموسوعي 1, 3

هذا الكتاب

« أنثوية جيد » من أعظم الأدباء الفرنسيين الذين
برزوا وعرفوا في أنحاء العالم في القرن العشرين على
الرغم من أنه من مواليد القرن التاسع عشر
(١٨٦٩ م) لأنه كان أقرب في عقله إلى روح
القرن العشرين بل ربما كان أقرب إلى أجيال المستقبل
لأنه أوجت برهته في نفسه الثورة الحارمة فترك
نفسه على شحمتها فكان ذلك الجروح الذي عرف به
فصار يهود المثبات البركات التي يتدفع لها
خلده.

من أهم أعماله « إيزابلا » التي كانت لها

هذا الكتاب

قال « أنثوية جيد » وهو من

روى عام ١٩٠٤ في حياته في

في حياته

